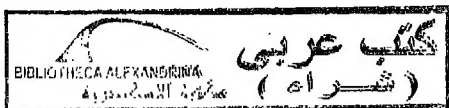


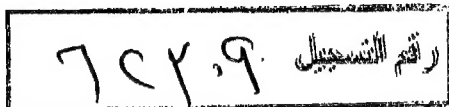
خيوط النور

محمّد عبد الحليم عبد الله

تحيه الهمه



محمد عبد الحليم عبد الله



خريطة الإسكندرية

الطبعة
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجيلة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



الوديعة

بدأت تشعر بالقلق عليه فى هذه الليلة ..

لم يحدث من قبل أن خفق قلبها بالخوف .. هكذا .. من أجله ..
ومع أن الشهر كان ديسمبر والليل بارد ، فإنها لم تستطع إلا أن تطل
من الشباك . تلفعت بشال ووقفت تنظر . ونخلة وحيدة تترنح أمامها
على بعد فى هدوء الليل . وابنها لم يعد .

شعرت ببوارد سعال فتراجعت من النافذة وأقفلتها وأضاءت النور
وجلس .

لاحظ لها على الحائط صورة تحمل ملامح ابنها . إنها طبعاً صورة
زوجها .. الذى عاش عمره بسرعة ومات صغير السن .. عاشه بطريقة
سلوكه .. بطريقة الأكل والمشى والسباحة والعمل وحتى الحديث . كان
يفعل كل هذا بسرعة تدعو إلى العجب .. وحتى العمر عاشه بسرعة
ومات فى السادسة والعشرين .

ولم تكن تطيق أن تسترجع هذه الذكريات فقد ركزت بصرها على
الشجرة الخضراء الوحيدة .. عندها .. فى حديقة الدنيا .. على ابنها
الذى يمارس العيش ممارسة تختلف عن سلوك أبيه تماماً . فهو يأكل
بطء ويمشى ببطء وينفس الطريقة يتكلم ويعمل ويتحدث .

وابتسمت لنفسها وهى وحدها فى الحجرة عندما أوحى إليها

قلبها بما يرضيها .. بأن ابنها سيعيش طويلا مادام هذا شأنه .. فلا داعى للخوف عليه .

ولم تكد تنهض من موضعها حتى دق جرس الباب فلم تترك الفرصة للخادم الصغيرة . بل سارعت إليه . كان هو القادم .. وأحست فى هذه الوهلة بعتاب يكاد يتحول إلى إعراض ، ولكنها نسيت كل شىء عندما تبسم وخطا بعوده الممشوق نحو الداخل وأخذ يتكلم بهدوء يكاد يكون نوما .

كانت تستمع إليه وهى صامته . وتعلم تماما أنه قد جاوز العشرين وشغل وظيفة فى الحكومة ، وبدأ مسلكه الشخصى يدخل فى « منطقة الظل » .. فمنذ عام .. وعلى التحديد قبل الصيف الماضى كان عند خروجه يقول لها بصوته الهادئ المتساوى النبرات الخالى من الإيحاء والتأثير : « ماما .. أنا راجع إلى مكتبى هذا المساء لبعض الأعمال » .. وينظر فى ساعته تلقائيا .. « غالبا سوف أمكث حتى الثامنة مساء . فإذا لم أعد حتى الثامنة والنصف أكون قد مررت على صديقى عبده .. وإذا حدث أن طال تأخرى فلا تقلقى لأن ذلك معناه ذهابنا إلى سينما .. ماما .. باى باى .. قبلينى » .

وعلى الغداء أو العشاء تدور أحاديث عن الماضى أكثر من الأحاديث عن المستقبل ، لأن الماضى فى حياة بعض الناس .. لقصره وقربه .. يكاد يكون حاضرا .

فهى أم .. أرملة فى السابعة والثلاثين . وهو ابن شاب فى الحادية والعشرين . ظهر أبوه فى حياتها كأنما ليسلمها رسالة .. ثم انصرف ! لكنها خاضت ببسالة تجربة تساؤل الناس :

« كيف ستتصرف بشبابها ؟! » ثم تجربة الوسوس ثم تجربة الدفاع نحو الزواج الذى رفضته .

كانت تحس أنها قادرة على تحمل مثونة العيش . لم تكن فى عسر ولايسر . ولم يكن هذا فى نظرها مهما ، فقد كانت حقيقة إحساسها قد تحولت إلى مجرى جديد .. شعرت أنها جناح واحد لكتكوت صغير هو ابنها ، فلم ترسم المستقبل ، بل عبرت على الطريق كما يعبر الأعمى الذى تخدمه المصادفات .

كان منها أن ترى ابنها فى العاشرة من العمر . مدعية فى نفسها أنه عندما يبلغ هذه السن يمكنه الاعتماد على نفسه ، ويمكنها هى أن تفكر فيما يفكر فيه الناس بفضولهم ، فلما بلغ ابنها العاشرة رأت فيه أنيسا ، حتى إذا ما بلغ السادسة عشرة رأت فيه شابا تسامره ، وها هوذا اليوم قد جاوز العشرين . وهى تخطو إلى السابعة والثلاثين . تذهب معه إلى السينما فى بعض الليالى متأبطة ذراعه فيبدو عودها الدقيق إلى جوار قوامه كظاهرة تدخل على نفسها سعادة كانت قادرة على تنميتها حتى تصير نشوة .

لكنها الليلة تحس شيئا غريبا دخل حياتهما ..

وجاءها هاتف « أن كل حياة مشتركة قابلة لأن يدخلها شيء
مادامت مكونة من قسمين » .

وحملت في ظهره العريض وهو يخلع السترة . كان ظهره إليها ..
وبعد ما لبس البيجاما سأل بتعب :
« هل عندك عشاء يا ماما ؟ » .

وانحدر السؤال إلى قلبها كأنه وسواس ، وقالت في نفسها لماذا
لم يقل « عشيئى يا ماما » كما يقول كل ليلة ؟

وسبقته إلى المائدة في خفة النحلة وجلسا يأكلان . وكان في
ذهنها مقدا فكرة أدمنت استعادتها في وحدتها حتى حولتها من فكر
إلى عقيدة وهي أن الحياة العائلية ليست رقا ولا شراء رقبة . وأن
البيوت أشبه ببنوك الودائع ، البنت لرجل في الخارج والولد لامرأة في
الخارج .. وليست هذه الودائع ملكا لمدير البنك !! .

لكنها على كل حال أحست جفافا في حلقتها فأخذت تصب من
الدورق ماء بيد مهزوزة . وكان الابن يلتهم البيض في صمت أرادت
هى أن تبدده فسألته عن صديقه عبده وعما إذا كان قد ذهب معه إلى
سهرة ..

وأحست منه إعراضا عن الكلام وأحست « بالغريب » الذى يدخل
الحياة المشتركة حتى كادت تمسكه بيدها .

وجدت نفسها فجأة تناديه . كان نداؤها أعلى من المألوف لأنها
شعرت أنه على بعد . عندئذ رفع بصره إليها . فقالت له :

- سمير . يجب أن تفكر فى الزواج !!
كان فى لهجتها إصرار وتدبر .. موقف كل عاقل يصدر الحكم
على نفسه .
وتوقف عن المضغ وسأل كأنما لم يصدق أذنه :
- ماذا قلت ياماما ؟
فأعادت الكلام بنفس اللهجة .. وكان هناك شىء متوقع عادة
وكانت نفس الأم الشابة على استعداد له . هو أن يقول سمير نفاقا :
« لا .. بدري يا ماما » .
ونطق سمير ، سمعته أمه يقول بلهجته المتشابهة :
- لك حق . لقد فكرت فعلا !!
وأخذت الأم تسأل بسرعة :
- ووجدت ؟
فأجاب بهدوء :
- ووجدت .
- مبروك !
- إنها ستعجبك . لكنى .. آه .. على كل حال بانتظار رأيك ..
وباتت الأم تفكر « أى الرايين ياترى هو محتاج إليه .. رأى
العقل أو رأى القلب ؟ »
لكنه لم يلبث أن قال لها فى الصباح بهدوء لا يختلف فى أثره عن
سرعة أبيه : « ماما .. سأريك خطيبتى الليلة .. هنا .. وسأشتري عند

عودتى ظهرا كثيرا من الجاتوه .. »

قالت الأم وكأنها ترى مروحة بضخم تدور أمام عينيها .

قالت فى شبه همس كمن يسأل أحدا لا يراه :

— هنا ؟ .. الليلة ؟

— نعم ..

قالها وهو يهم بالخروج من باب الغرفة ، فرأت عرض كتفيه ورقبته . وسمعت زقزقة حذائه وهو يخطو .. وخرج .. وجلست هى فى أحد الأركان .. لا تفكر .. بل ترى .. تلك المروحة السريعة ذات المحرك الضخم تدور أمام عينيها .

وفى المساء أحسست عندما رأت فتاة ابنها كأنها رأتها من قبل . وكان هو فى قمة السعادة .. تنسحب نظراته باستمرار على خديها الممتلئين وشعرها الداكن ، وتبدو إلى جواره كأنها فى الثلاثين ولو أنها فى حقيقة الأمر لا تجاوز الثمانية والعشرين .

وبدا فى الموقف شىء من التناقض فى مرآة عكست صورة الثلاثة .. أم صغيرة .. وزوجة كبيرة .. وشاب لقفته أول شبكة ..

وأخذ سمير يتحدث عن القصة ببطنه المألوف « فقد تعرف على شقيقها على الشاطئ ، فى الصيف الماضى .. »

وعندئذ تذكرت الأم أين رأت هذه الفتاة . هناك فى الإسكندرية .. وتركت ابنها يكمل قصته :

« ومن الغريب أن أباه هو ميت وأن أمها هى .. ميتة ! »

وضحك سمير . ضحك بسذاجة الطفل حين يلهو بلعبة الكبريت ولم يشعر أن هذه الكلمة صدمت إحساس الأم صدمة شديدة . حين تصورت أنهم يريدون أن يقولوا أن رجلا أرمل وامرأة أرملة سيلتقيان دائما بعد زواج الفتى والفتاة . وأن حياتها أصبحت فى خيال بعض من لا يعرفها سلعة تسام بطريقة لا ترضيها .

كانت تأكل معها وتشرب الشاي .. ولم يكن سمير ابنها أكثر من نظرات عبادة .. كانت الأم خلالها تعود بعض فترات إلى رمال الشاطئء لتمسك بأول خيط من حوادث حياتها المهمة . فعاودتها قصة رجلين غرقا فى الإسكندرية .. قصة الأب الذى كان يعمل كل شىء بسرعة حتى السباحة فتذكرت الأصيل الذى توغل فيه فى البحر فلم يعد لإغريقا .. وقصة جديدة .. قصة الابن الذى غرق على الشاطئء .. على الرمل ..

فكظمت مافى نفسها ، وخرج ابنها يودع الفتاة ثم عاد إلى البيت .

كان طبيعيا أن يسألها رأيها ، وكان مفهوما لديها أن كل شىء قد أبرم . فهمت بغريزة المرأة أن انفصالة عن أمه لم يتم بالتدريج .. فقد التقت حواء بآدم التائه الجائع العطشان فأمسكت به من يده ودلته على الطريق .. إليها هى .. إلى كهفها الملىء بالأساطير .

— ألم تلاحظ أنها أكبر منك سنا ؟ إنها تبدو وكأنها أختى الصغيرة !؟



اسب حواء بآدم الجائع العطشان ..

— إننى لا أحب الطائشات .

فترددت ثم قالت :

— إنك تسألنى رأى !!

— عندما تعرفينها .. مثلى .. ستجدين فيها مزايا غريبة !

ضحكت الأم من قلبها . كان الجدال نوعا من العبث . وتذكرت أنها ستسلم الوديعة كمدير أى بنك . كما أسلمها أبوها وكما أسلم شقيقها . لكن ..

« ألا يمكن رده إلى طريق الصواب ياربى !؟ »

لكن « سمير » كان يرى أن الصواب هو عين مايعمل .. زواج !! .. شىء طبيعى !.. كان يسمع أمه وهى تدعو أن تعيش حتى ترى هذا اليوم ! ..

كل هذا كان يدور فى فكره لكن .. لكن لم يخطر ببال « سمير » مدى أهمية المشكلة النفسية التى تنجم عن غياب شىء عزيز مألوف مرة واحدة حتى ولو كان هذا الشىء قطعة .

لم يدر فى فكره مدى ماتعانيه أم شابة تريد أن تحتفظ بعدة أشياء : فيها كرامة نفسها وفيها سعادة ابنها . وفيها عدم كرهها له .. وكانت الأم تحتضن كل هذه الأمنى فى انتظار من لايملك إلا الانتظار .

وذات مساء أعلن الابن حكمة جديدة . نقلها عن لسان صهره والد العروس .. تلك الحكمة هى أن « الفرح نهبه » .

ثم استطرد يشرح هذا القانون بأن فرصة الأفراح يجب أن تخطف
بسرعة لأن الأيام لاضمان لها ..

أليس من الجائز أن يموت أحد .. من .. الناس ؟

كانت الأم فى هذه اللحظة تحيك له بعض الملابس الداخلية ،
فابتسمت وهى تنظر إلى القماش سائلة نفسها عمن عسى أن يخافوا
من الموت ؟

وشعرت أن كل شىء يبرم دون رأيها . ومادامت هى لارأى لها
فى الأصل فإن التفاصيل لم تعد تعنيها .

شعرت أنها ترى سفينة تحمل حبيبها مسافرا تبتعد عن شاطئه
وقفت عليه ، وقلبها فى كفها تلوح به .. والسفينة تبتعد وحبيبها يلهو
مع من معه .. وهو غافل عن يدها التى تلوح له .

وشق على نفسها الموقف فكادت دمعة من عينيها تسقط على
قمماش « سمير » . غير أنها كانت قد عودت نفسها على كبح كل
مايمس كرامتها .. فقد وهبت ابنها كل مافى العمر من ليال من الممكن
أن تكون أعز متعة .. غير أنها رأت نفسها بخيلة بساعة واحدة
تعطى فيها من كرامتها جزءا .

وأصبحت شقتها تضم أربعة . بعد أن فوجئت بأهل العروسة
يدخلون أثاث غرفة النوم ليلتقى العروسان .

وكان الصمت الذى سبق هذا العمل سببا فى جعله أشبه بالغزو ..
فماذا لو سكن الابن فى الخارج ؟

وقد طرأت هذه الفكرة على رأسهم لكنهم رأوا حمل أخف الأضرار فضلا على منفعة التعجيل بالزفاف .

ومنذ ليلة الدخلة وسمير لم يتناول طعاما مع أمه .. وقد مضى على ذلك شهران . عندئذ أحست أنها تذبل .. شعرت أنها نبات غير مزروع .. مستنبت فى قطعة من القطن المبلل كما كان يفعل سمير بالقمح والحلبة وهو صغير . أحست أن ازدهارها وقتى وأنها سستنتهى بجفاف القطن .

أما فى الحجرة البعيدة فى شقتها فقد كانت الحياة تمضى بأنانية بدت غاية فى التناقض مع ماسلف أن قدمته .

أحست بأن داء الأمان والحب بدأ يتحول إلى النار فخافت على قلبها .. قلبها الدقاق .. وقلبها « سمير » ثم سهرت فى ظلام غرفتها تفكر . ماذا تعمل لتجعل هذا البناء الذى عملته وحدها سليما حتى ولو أمام الناس ؟ من المحال أن تخرج من الشقة وتسكن وحدها .. ومن المحال أن تفعل العكس .

وكانت تستيقظ كل صباح على قىء الزوجة فى الحوض فتنهض لترى ابنها ممسكا بها .. وفرحه بانتظار المولود يغالب حزنه لموقف زوجته ..

وعند ذلك تحييهم وتدعو لهم ويرد « سمير » دون أن يرفع وجهه عن الحوض ، بينما الأم واقفة على قرب .

ثم ما لبثت الأم أن تذكرت شيئا .. أناس سيخطرون على بال

الناس وهم فى الأزمت كما نذكر اسم دواء نافع . فقد تذكرت سيدة ..
كانت زميلة لها فى المدرسة . ظلت تقرأ اسمها فى الصحف طوال هذه
السنوات ، فقررت مقابلتها .
وفعلت ..

وبعد ذلك بشهرين كانت الأم تملأ إحدى الحقائق بملابسها الخاصة .
سألها ابنها فى دهشة :
— إلى أين ياماما ؟
فقلت بهدوء :
— سأترك لك عنوانى .

فتبادل الزوجان نظرة ذات معنى .. فهما أنها ستعيد مافات ..
فهما أنها ستتزوج .. فهما رأسيهما فى هدوء من تشرب فكرة .
لكن ..
فى المساء ..

كانت الأم فى إحدى دور حضانة الأطفال مشرفة مقيمة تملأ
عينها الشابتين بالخلقة الجديدة وتتمتع بالحرية التى منحها لغيرها .

خيوط النور

أول مريض أذكره فى قريتنا أذكره تماما .. كان ذاهبا إلى من أطلقوا عليه الدكتور « فوتى » على حمار بطنى يتسحب وكأنه مريض ، وإلى جانبه رجلان يسندان على وجوههما علامات يأس وألم. ورأس المريض يتمايل مرة يمينا ومرة شمالا . وأنا أسترق الخطى خلف الموكب لأرى ماذا سيحدث ...

كان فى يدي ثمرة واحدة من فاكهة « الجوافة » أقطم منها فى شروء . رائحتها فى أنفى وقشرها فى حلقى وبذرة منها فى أضراسى . وفى تأمل ونسيان سعيت خلف المريض ، وأنا أتخيله فى عيادة الدكتور « فوتى » وأذكر خلال هذا كله أُمى المريضة فى الدار .

كان الموكب فى طريقه إلى الدكتور « فوتى » ... فى مخزن الأدوية الواقع على الترعَة . وكان هو الطبيب الوحيد فى بلد تعدادهِ عشرون ألفا لايقع على السكة الحديد ولا الملاحة النهرية يكاد يكون معزولا لا يشعر به أحد . ولذلك فإن مهارة « فوتى » تجلت فى اختيارهِ لهذا المكان كمصدر للكسب .. فى زمن لم يكن فيه علم ولا نور . وهناك على الترعَة الرئيسية التى بنيت عليها بيوت الوجءاء فتح مخزن أدوية وسكن فى حجرتين فوق . تطل نوافذهما العتيقة على مساكن البلد . ومن وراء مصاريعهما كان يسمع نداء الملهوفين الذين

جاءوا لدفع النقود .. فى نظره .. قبل شكوى الألم .

كنت أسير وراء المريض وفى ذهنى أفكار سمعتها من أمى . وفى قلبى شوق لرؤية مايستعمله « فوتى » فى إعادة الحياة إلى المريض . وعند منعرج الطريق لاحت العيادة فى المخزن وبدا عدد من الفلاحين متزاحمين عند بابها فى جلابيب داكنة وقلنسوات صوفية . وحمل المريض إلى الداخل وأرقدوه على دكة من الخشب ووضعوا تحت رأسه « تلفيعة » فلاح ريشما يفرغ « فوتى » من المريض السابق ..

وتسللت وسط الجمع وبقيّة ثمرة « الجوافة » فى جيبى وفى نفسى شوق يملؤها لأن أرى صراع الإنسان لإعادة الحياة إلى إنسان ... فطالما حلمت بأن أرى عملية جراحية أو شيئا خارقا . ووقف الجميع باحترام ... فى انتظار « فوتى » ولاح لنا وجهه الأحمر وعوده القصير ورأسه الكبير الذى ملأه الشيب . وفى عنقه « السماعة » وكلمات الترحيب تتواتر من فمه بلغة التجار تشوبها لكنة أجنبية تثير ضحك الأطفال . فقد كان رجلا مجهول الجنسية .. قيل أصله يونانى وقيل أصله أرمنى .. وكل ما يعنى أنه لم يتعلم فى مصر وقالوا إنه يحمل شهادة من إحدى بلاد ألمانيا ، ثم قالوا إنه طبيب على كل حال تراه الحكومة فلو كان شيئا ضارا .. لمنع !! ثم إنه أيضا كتب اسمه على لافتة مخزن الأدوية فيها « الدكتور أفستيداس » ولهذا كانوا ينادونه باسم « فوتى » .

— أهلا وسهلا .. يابركة أولياء الله !!

وبهذه اللازمة كان يبدأ « فوتى » عمله مع كل مريض وكانت
اللكنة القاسية التى تلون نطقه بالتحية والدعاء لكنة الغرياء عن كل
ما يقولون تلقى فى نفوس الفلاحين معانى غامضة . وتجعلهم يميلون إلى
الاعتقاد بأنه عما قريب سيتغير .. ربما صار ريفيا له نفس تقاليدهم
وأحب الأرض .. وربما تزوج وعاش هناك وأنجب .

وقال « فوتى » بلكنته الثقيلة للمريض الراقد على الدكة « أهلا
وسهلا يا بركة أولياء الله » ثم سأل عما به . والسماعة على مقربة من
أذنيه .. فلم يجب المريض ... كان يتنفس بصعوبة ... وسارع فى
الشكوى والوصف من كانوا معه واحد تلو الآخر وهيهز رأسه الكبير
فى فهم لا يبدو فى عينيه ثم حققه فى ذراعه وأعطاه شرابا فى زجاجة .
لكن المريض وهو راجع لم يستطع الركوب بل حمله الرجلان على كرسى
وأعادوه إلى البيت .

وعدت خلف الموكب ... ثمرة الجواقة لا تزال فى يدى ، أخذ
قضمة ثم أنسى . وأذكر أمى المريضة وخوفها من « فوتى » حتى
وصل الرجل إلى داره .. وقبل أن ينصرف المهتمون بالأمر ... رنت
صرخة وقوع « الموت » .

منذ ذلك التاريخ وشخصية « فوتى » مقرونة عندى بذكرى الموت
.. وكبرت وكبر هو . وكبرت ثروته كذلك . وظل أعزب لا يريد أن
يتزوج . واقتنى عربة نادرة حاول الأعيان تقليده فيها ... وكلها روميا

يركب إلى جواره ... كبير الحجم لا يفارقه أبدا

نسج حوله الناس قصصا غريبا . قالوا إنه يسقيه الدواء إذا مرض ، ويقيس حرارته فى المناسبات ويغسله بنفسه فى الحمام . ويصحبه فى رحلات الصيد .

ففى أيام الأحاد كان يقفل مخزن الأدوية ويرى فى قميص زاهى اللون ، بمربعات على هيئة شطرنج وحذاء برقبة وفى كتفه بندقية والكلب وراءه وكان هذا المنظر فى القرية نادرا وغريبا أول الأمر ثم ألف وعرف بمرور الزمن أن « فوتى » فى الصيد أمهر منه فى الطب . وفى رعاية الكلاب أرقى من رعاية الإنسان لأنه لم يتزوج ولم يتخذ خادما ، بل كان يفعل كل شيء بيده ليدخر أجرة ما يفعله له أى إنسان .



كنا نتحدث فى حلقات اللعب التى نعقدها فى الحلاء فى ليالى الصيف تحت القمر أو النجوم عن نبوغ أخى فى المدرسة . أخى الكبير . وكنت مولعا بأن أنسج حوله الأساطير . « انه لا يهزم ... حتى المدرسون يخافون من ذكائه ... تنبأ أحد المفتشين له بالعظمة وتنبأت له أمام أمى بنفس الشيء ضاربة الودع » .

وأقسمت على هذا أمام الغلمان . ونحن متحلقون حول لا شيء بعد جهد جرى طويل ، ورد أحدهم ممن كانوا يفارون منى : « يعنى ... أخوك ... الدكتور فوتى ؟ »

كانت أمى تتمنى له أن يكون طبيبا .. وكأنا كانت هذه الأمنية

صادرة من أوجاعها أكثر مما هى صادرة من عقلها . وكان أبى فلاحا فقيرا لا يقدر على نفقات المدينة . مثله مثل كل فلاح يفضل أقرب « طبيب » ويزور أبعد « ضريح » ولذلك فإن أمى كانت إحدى موارد « فوتى » حتى يشت وكفت .

ثم اهتزت القرية على حادثة كبرى . أول حادثة من نوعها تجعل الناس ينشغلون .. هى .. دخول أخى كلية الطب لأنه كان أول القطر فى شهادة البكالوريا التى أتم بها تعليمه الثانوى .

كان « فوتى » يومئذ فى زيارة العمدة . وكانت الزيارة مجرد سؤال عن صحة . بلا مقابل ... إلا جوالا من البطاطس أو حملا من البطيخ .

وكان العمدة يومئذ فى نشوة ناظر المدرسة الذى حصلت مدرسته على « الكأس » فى إحدى المباريات . حرر قدميه من الحذاء والجوارب واتكأ على الكنبه رجلا على رجل ، وقال لفوتى :

— ما رأيك فى شبان بلدنا ياسيدى ؟

— مالهم ؟ سلامتهم ... (وضحك) كلهم مرضى بالبلهارسيا ، وثلاث المرضى بها مريض بالكلية ... والثلاث الثانى مريض بالطحال .. (وامتد ضحكه) .. أهنيك يا حضرة العمدة .

وعجب الحاضرون . فقد برزت حقيقة « فوتى » فى كلماته وعينييه وملامحه . ونبح كلبه فى الخارج فى العربة كأنه يذكره بوجوده . وبدا على وجه العمدة غضب الريفى الذى خدش عرضه . فاعتدل فى

جلسته وقال له :

— (معلش) .. نستحق منك كل هذا .. فالحق علينا .. ومن نقود الذين تسبهم يا « فوتى » ركبت عربة وصاحبت كلبا .. و ... فضحك الفلاحون . ضحكوا من كل قلوبهم . وأيقنوا أن القضية قضية حق . على حين استطرد العمدة الذى مال وتناول حذاء « ليلبسه قبل الانصراف ... استطرد قائلا :

— إن ابن بلدى سيكون طبييا بعد خمس سنين .. والحكم بكرة .. عندئذ قام « فوتى » مستخزيا وأخذ رأس العمدة بين راحتيه وقبله معذرا . وقد احتقن وجهه . ثم سار معه إلى الخارج ... حيث تنتظره عربته وكلبه .

زغردت مريضة بمرض مزمن فى قريتنا عندما علمت بخبر تخرج أخى من كلية الطب . أما أنا فقد بكيت ... لأن هناك فما كان أولى بهذه الزغردة هو فم أمى ... التى كانت قد ماتت قبل ذلك بسنة . وفى ذلك اليوم كان الفلاحون يجرون خلف عربة « فوتى » ليليلفوه النبأ ولم يكن يرد . كان كل ما فيه حزينا . كان خائفا من النور . وكان فى مرضى البلهارسيا والطحال الذين قال عنهم ذلك ناس من الممكن أن يكونوا « مشاعل » لكنه دخل بلدنا تحت جناح الظلام ... ظلام الزمن لا ظلام الليل .. كأحد المغامرين الذين يبحثون عن جزيرة الكنز عبر الأقيانوس .

ولم يكن أخى يستطيع الإقامة فى القرية لأن الحكومة عينته فى مستشفى بعيد عنها . لكنه جعل لقريته أياها محددة فى نهاية الأسبوع . فكانت منظره دارنا تفتلىء بهم وكان ينتقل هو إلى الوالدات والمأزومين .

حب الوطن ؟ .. حب الأهل ؟ .. حب أنه يريد أن يفيد بما يعرفه ؟
.. حب تخليص النفوس من الآلام ؟

واحد من هؤلاء أو هؤلاء جميعا دفع أحد شبان القرية أن يخدم القرية . بصرف النظر عن « فوتى » وكلبه وعريته وثروته وجنسيته المجهولة وبخله واكتنازه المال .

وأخذ تزاحم المرضى حول مخزن الأدوية يقل وأخذ الدخول فى التناقض تبعا لذلك . وشعر « فوتى » بالفراغ .. فأخذ يخرج إلى الصيد مرتين فى الأسبوع ويسافر مرة إلى البندر حيث يتسلى بأى لعبة !!

كان يطلق بندقيته على الصيد وقلما يخطئ . والكلب من ورائه يعوى فى أعقاب كل طليقة...

وأحس « فوتى » أن حياته أصبحت فارغة بعد أن سرق أحد الفلاحين منه شيئا .. كان تافها للغاية لكنه كان بالغ الأهمية .

كان فى مخزن الأدوية بعد الحقنة لمريض حينما سمع صوت شيء يتحطم من سقوطه على الأرض . وسارع « فوتى » إلى الداخل وبعد قليل عاد يعلن أن القط أستقط زجاجة كانت على إحدى المناضد وهو



بعد هذه الحادثة أصبح كل شيء واضحا

يطارد حشرة . ثم جعل « فوتى » يتذكر ماذا كان بصدد عمله ،
ثم أحضر الدواء وحقن المريض .

وخرج الفلاح المريض من عنده مهللاً فقد أمسك بأول خيط يثبت
الإشاعات . لقد سرق الأنبيوة وسيعرف نوع الدواء .. إنها أنبيوة
خرساء ليس عليها ورقة مكتوبة.

وأخذها الطبيب الجديد .. الابن الشرعى لبلده .. وتبين أن فيها
شيئا .. شيئا لا يضر ولا ينفع .. ماء ملح .. طالما حقن به الناس ..
قبل ظهور النور قائلا : « أهلا وسهلا يا بركة أولياء الله ! » ولكنه
تجعل كل شيء غريبا حتى وجهه الشهوانى .

وبعد هذه الحادثة أصبح كل شيء واضحا . ولم يعد أحد من
الفلاحين يحن إلى عهد الظلام . كانوا ينتظرون نهاية الأسبوع بلذة
الجائع فى نهار الصوم ، وانقطع مورد « فوتى » وكان عليه أن يبحث
عن مسقط رأسه من جديد بعد بلوغه الستين من العمر بلا زوجة ولا
ولد . لكن بمال وكنوز .

ولعله سهر يحسب الأيام . فوجد نفسه قد انفصل عن مسقط
رأسه بمسافة وزمن . مسافة آلاف من الكيلومترات وآلاف من الأيام
ربما بلغت عشرين ألف يوم .. فخاف !!

وأصبحت أيامه كلها صيدا . رآه أحد الفلاحين وهو واقف فى
الفضاء يطلق النار على الطيور بشراسة . وأكد أنه كان فى أحيان
كثيرة يطلق النار على لا شيء . حيث السماء خالية والأشجار لا طير

فوقها . وكانت الجعبة مليئة بالطلقات ، وكلما دوت طلقة نبج كلبه وعاد هو من جديد إلى حشو البندقية .

وساورت الفلاح شكوك . فقد كانت الظواهر تدل على أن « فوتى » صار نصف مجنون ... إنه يطلق بندقيته على لاشيء . وكلبه ينبع ولا أحد منهما يتوقف .

وأخيرا صرخ الفلاح .. ونهض يجرى من مكنه .. فقد أصابت الطلقة رجلا ولم تصب طائرا ... وسقط الرجل يتلوى لأنها أصابته فى مقتل .. أصابته فى صدره ... وأخذ الدم ينزف منه ..

ولم يكن هذا المصاب إلا « فوتى » نفسه . تلفت بندقيته من سوء استعمالها فى الأيام الأخيرة فارتد عليه الطلق ، وصار ينزف .. وينزف .. وينزف .. حتى مات . والكلب ينظر إليه فى ذعر .

وعندما عاد أخى الطبيب آخر النهار قمنى لو كان أدركه فمد إليه يد الرحمة .

لا يزال مخزن « فوتى » قائما على التربة يحمل نفس الالفة « الدكتور أفسنديادس » وشقته مغلقة حتى يعرف له أهل ، لكن الجيل الجديد من أبناء قريتنا يقرأون هذه الالفة كلما مروا عليها عامدين .. وبصوت مرتفع .. وكأنهم يؤكدون لنفسهم أنها صفحة من تاريخ زائف مزقتها يد الحقيقة تحت أشعة شمس مصر الساطعة .

العودة إلى التيه

هناك بضعة كيلو مترات لا بد أن يمشيها لكى يصل إلى الدار
التي بات يحلم بها أربعين يوما ..
وكان ينأى باستمرار عن الطريق الرئيسية لا لشيء إلا ليختصر
الطريق . والأرض من حوله .. حقول .. وترع جافة .. وأشجار عراها
الشتاء من أوراقها . أما السماء فقد بدت رخيمة لاسحاب ولا مطر ،
والشمس تلقى بأشعتها على الأرض التي نذتها أمطار الأسبوع
الماضى ، كان يحسها تحت قدميه العاريتين فى الأماكن التي لم تجف
بعد .

كان طويلا يميل إلى الانحناء شيئا ما ، فى وسطه حزام عريض من
الصوف غزله ونسجه وشده على وسطه ... وكان يشعر بعد أن يشده أن
جسمه أكثر تماسكا وقوة سريع المشية مع طوله يهرول بطريقة تدعو إلى
الانتباه ، وقد شمر أذيال الجلباب بواسطة الحزام ، ومشى على الأرض
الندية ليقطع بضعة كيلو مترات إلى الدار التي لم يرها منذ أربعين يوما
.. وحده على الطريق .. على كتفه فأس ينقلها إلى الكتف الأخرى إذا
ما أحس بالتعب وفى يد الفأس الخشبية علق « جردل » من الصاج
يترنح من المشية فيحدث صوتا من الممكن أن يكون مسليا لعبا السبيل
.. صوتا معدنيا خاويا « ترن .. طن .. ترن .. طن » ليس بينه فرق

كبير وبين الصوت المعدنى الذى ينبعث من « مفصلة » شباكه حين تعابشه ربح الخماسين . وبحركة غير إرادية ألقى يده تحرك يد الفأس من اليمين إلى الشمال لكى يستمر صدور الصوت ، وكان الطريق خاليا فأسبل عينيه ، وسرى الدفء فى أوصاله من الشمس المتحررة من كل سحاب فأحس كأنه فى الحجرة العلوية فى داره والشباك فيها يبعث الأزيز « ترن .. طن » واللييلة ليلية سوق .. وصحن الدار قد عبق بروائح مختلفة أكلها رائحة التوابل من حلة نحاسية على الكانون جلست أمامها زوجته ..

وعندما دخلت صورة زوجته فى نطاق أفكاره أخذ يحرك يد الفأس لينبعث الصوت المعدنى قويا حاسما مؤكدا أنه فى الدار وأن ربح الخماسين تهز عليهما الشباك ..

لكنه ما لبث أن تنهد وفتح عينيه ... كان كل شىء من حوله كما هو ، والطريق الممتد والأشجار العارية ... والترع الجافة

إنه منذ أربعين يوما لم يذق دفا الحنان ، سكينه زوجته فى الدار وهو نائم فى الخيمة بين عمال الترحيلة .. رجل جنب رجل على فراش من القش ، كانوا يضحكون ويتبادلون النكت ويذكر كل منهم صاحبه بزوجه ، وتتأجج النار فى الخطب جنبهم حتى تخبو فيخبو كل شىء فى المكان .. حتى الأرواح حتى الأحلام ... فكم مرة استيقظ عابر السبيل هذا وهو يدعو على الشيطان ... الذى طالما نقل إليه عبر الأحلام فى شبابه نساء لا يعرف صورهم ، ثم حرمه من حنان سكينه طوال ليالى

الغيبية .. وقد كان مشتاقا إليها .

وأحس بوهج غير عادى يسرى فى أوصاله ، شعر برغبة فى عمل ما يؤكد الحياة ... يؤكد الحياة فيه هو ... فى هذه اللحظة .. وتوا .
شعر أنه محتاج إلى أن يأكل أو أن يشرب أو يدخن ... على الأقل . لكنه تذكر أنه لا يحمل طعاما فقد أكلت الليالى الأربعون كل نقوده وزاده وقواه ، فلم يبق معه حتى أجرة القطار ، غير أنه أحس بقوة أعظم من المألوف ، فعندما يصل سيجد سكينه جالسة أمام الكانون ... لاشك فى ذلك ... فاليوم هويوم السوق وعند أذان العصر سيطرق عليها الباب فجأة ... بتلك الحلقة الحديدية الكبيرة التى تشبه الخلخال ...

وتبسم ، وجرى ريقه ... تحلب بغزارة كمن شم راحة الشواء ، وحرك يد الفأس لينبعث الصوت المعدنى . إنه قريب من صوت الشباك حين تحركه الريح وهو جالس مع سكينه ..

ما أجمل وهج النار على وجهها الشاحب ... إنه يكسو ضعفها حمرة يود أن تدوم ، غير أنه فى سبيلها يقطع الآن كل هذه الكيلومترات مشيا على قدميه ، لقد نزل البندر ذات يوم فاشترى لها منديلا من الحرير ، كبيرا تعصب به رأسها ، من أجل ذلك تلفت الحسبة فلم يجد مايكفيه ، غير أنه لم يلبث إلا قليلا حتى عاد إليه اقتناعه بأن ابتسامة حلوة من وجهها الذى يشبه الآن وجوه الأطفال سينسيه كل المتاعب ..



وعاد يهز يد الفأس لينبعث الصوت المعدنى .. « ترن .. طن ..
 ترن .. طن » فأخذ نفسا عميقا .. « آه .. هانت .. أنا الآن فى نصف
 الطريق » ومع تنهد الراحة دخل إلى مخيلته صوت جديد من خلال
 حركة الفأس هو صوت طشت النحاس حين تلقى به زوجته أمام رجله
 وتصب فيه ماء ساخنا يضع فيه قدميه فيغمر البخار وجهه وتوقظ
 الحرارة قدميه المتيتين وتمشى يد سكينه على ساقه لتغسل عنها الطين
 والتعب ويغمض عينيه ويسند ظهره ورأسه إلى الجدار فى استسلام من
 يلقى بالهموم .. والزمام .. والحب .. فى وهلة صغيرة ..

لكنه فجأة أفاق من هذه الأحلام ، أحس ببرد طارىء يسرى فى
 بدنه .. ولم يكن قد فطن بعد إلى أن الشمس قد غامت ، هناك سحب
 فضولى جبار لايعرف العواصف طمس مصدر الدفء ، ويلاقص وجد
 نفسه ينفخ فى السماء كأنه أراد أن يكشف عن السماء سحابة كما
 يفعل عادة برغوة اللبن ، وضحك وحده فى الخلاء ونظر فإذا خضرة
 الحقول تتحول إلى دكنة بعد أن انسحبت أشعة الشمس ، واندفع قلقه
 فجأة إلى رجله .. أحس أنه يثب أحيانا ويعدو أحيانا .. وتلفت
 فخشى أن يظن به الناس الظنون .. كسارق أو مجنون ، فعاد يمشى
 الهولنا .. ويهز الفأس لترسل إليه لحنها الساحر من خلال المعدن
 الصامت الذى كساه الصدا .

ومالبت أن سأل نفسه : « هل تحس سكينه الآن وهى فى الدار بما
 أقاسيه على الطريق ؟! » وأجاب عن سؤاله بابتسامة ، وهز رأسه

مؤمننا على أفكاره التى بداخل رأسه :

— إنها تحبه .. حقيقة أن جمالها مصدر عذاب له ، فلو لم تكن جميلة ماترك مزرعة كامل جمعة التى كان يعمل فيها أجيرا دائما .. لكنه شم رائحة الخطر ، فلكى يمنع سكينه عن حقول كامل كان لابد أن يخرج منها ، واتخذ هذا القرار فى ليلة سوداء نشب العراك بينه وبين سكينه عدة ساعات منذ سنة .. وريح الخماسين تزعزع مصراع الشباك فتزقزق المفصلة « هكذا » ..

وأخذ يهز يد الفأس فينبعث الصرير المعدنى ، وتغير جوه النفسى كما تغير الجوالج الخارجى ، وبدأ سحب دامن يقد من الشمال الغربى .
ورحبت خضرة الحقول بتلك اللمسة الندية فتمايلت فى انتظار الشرب ، وشعر هو بالخوف « فجأة » كأن هذه الريح ستهب فتخطف سكينه أو تفرقه بطوفانها .

وتوقف عن السير وجلس فى تعريشة من الحطب على رأس حقل لكى يستريح .. شعر بالعناء عندما جلس ، وكان الهواء يعايب الأوراق الجافة الباقية فى الحطب فيرسل صوتا خشنا ، ومدد ساقيه وتأوه .
« لو لم أشتري المنديل لسكينه لارتحت من هذا العذاب » لكن ..
ما أجمل لون وجهها تحت منديل طرابيشى .. إنه أقرب ما يكون إلى وجوه البنات فى صباح الأعياد

وكان متاعه أمامه .. الفأس والجردل .. كانا كأنهما ينظران إليه بنظرة ودية .. أصدقاؤه فى القحط وعدته ومصدر رزقه .. واضطجع ..

كان المكان مسوى ممهدا .. سواء إنسان ما رقد فيه من قبل ، ربما وحده .. وربما مع أحد .. وتبسم .. وسحب عدته إلى الأمام لتكون فى مأمن معه فى هذا الكن .. وخيل إليه أنه يرى حيوانات أليفة فى الفأس والجردل .. كائنات حية لاتنطق ، فيها مودة صموت من قبيل آخر غير مناغاة سكيئة .

وهنا تحسس جيبه فخشخشت الورقة التى لف فيها المنديل .. كانت فى جيب الصدارى ، تحت إبطه الأيسر ، فجعل يضغط ويضغط وأغمض عينيه .. وخيل إليه أنه يضغط على رأس زوجته وأنها تتأوه فى استزادة وهناك دفء ينبعث من بطن الفرن مع رائحة خبيز .. « آه .. شىء لذيذ أن .. نشعر .. بالدفء .. بعد .. مشوااا ر ... طوي ي ي ل » .

سمع ضجة معدنية كانت صادرة من « الجردل » حينما مد ساقه فأصابته فترنج فسقط .. وعندئذ استيقظ من النوم !! .
وجد نفسه فى مكانه من تعريشة الخطب ، منحتة الدفء فنام ، وحلم أنه فى أحضان سكيئة ، ومد رجله فأسقط « الجردل » فاستيقظ .
فكرة أدخلته فى حلم .. وخبطة أخرجه منه .. ذلك شأن المتعبين .
غير أن الذعر ملأ بدنه كأنه ضاع فى اليم . كان الجو قائما وسماء تنذر بالمطر والنهارقارب أن ينتهى ، فانتفض وقطى وعلق الجردل فى يد الفأس وحملها على كتفه ، وسارلايفكر فى شىء إلا أنه يمشى ،

وكان النوم قد أمده بقوة جديدة ولو أنه أحس بالجوع .
 ولاحظ له مداخل القرية . إنه يعرفها .. هذا هو نور « الكلب »
 يسطع من وراء نوافذ كامل جمعة المغلقة .. « الجبار .. كان يراود
 عنى سكينه .. سبب عذابي » وتنهد وسره أن يدخل فى الظلام فقد
 تأخر عن بقية الأنفار لأنه مرض أربعة أيام فعوضها فى فرقة أخرى ..
 وذلك على كل حال خير من استرداد النقود .. « النقود » ؟ وهز كتفه
 الحرة التى لا تحمل شيئا لكن ذلك أدى إلى سماع الصوت المعدنى الذى
 ملأ إحساسه طول الطريق .

وحرك حلقة الباب الحديدية التى تشبه الخلخال فى رفق فأرسلت
 دقات قلقة . وأتاه صوت سكينه من الداخل يقول « مين » ، وفتحت
 الباب فعرفت جرمه الطويل الذى سد فرجة الباب كلها فهتفت كأنها
 تدارى سرا : « سليمان .. حمدا لله على السلامة » فحرر يديه ثم
 احتضنها ..

وكانت خطا الليل تتقدم .. والدفع فى القاعة مزوج برائحة الدهن
 والخبيز واللحم والبصل .. وفى الركن تحت حمالة الملابس أطفال ناموا
 مبكرين . وكان سليمان يحكى لسكينه عن كل مالاقى ..
 وتحسس المنديل الجديد على رأسها .. ذلك المنديل الذى اشتراه
 بثمان تذكرة السكة الحديد .. وكان على الفرن وعاء من النحاس فيه ماء

ساخن ينتظر حتى الصباح .. وأخيرا ضحك سليمان قائلا لسكينة وهو
يبتسم للنوم الحقيقى : « كنت واحشائى ياسكينة » فإذا بها تبكى .
فطار النوم من عينيه وأخذ يسألها عن السبب فاعتصمت بالصمت ،
فلما ألح وثار قالت له :

- أصل .. آه .. كامل جمعة سأل عليك ؟

فجف ريقه وهمس سائلا :

- على أنا ؟ والسبب ؟

- يمكن تكون تحب تشتغل فى أرضه .. يمكن !

فتعلق الكلام بينهما فترة كأنه تجمد ثم رد نائرا محسورا :

- أنا ؟ طبعاً غير ممكن !!

فأطرقت تبكى وقالت بعد قليل :

- طيب .. وليه تأخرت أربعة أيام زيادة ؟

- انت عارفة السبب ياسكينة ؟

فقالت من خلال دموعها وشهقاتها بطريقة لا يمكن أن يصل إلى

أعماقها سليمان الحكيم لاسليمان الزوج :

- أنا كنت عارفة إنك رافض الرجوع عند كامل جمعة .. وعارفة

ان الشغل ضرورى .. آ .. آ ..

شهق الرجل .. كاد نفسه ينقطع . فقد أدرك أن سكينة قد قبضت

له أجر أربعين يوما أخرى من المقاول . وهذا هو سر رائحة الخبيز .. فقد

جهزت « الزودة » .. وهذا هو السر أيضا فى اللحم والدهن ورائحة

التوابل .. وليلة واحدة دفيئة فى الدار .. كان من الممكن أن تكون
ليالى أربع لو لم يتأخر هو هناك ..
وساد الصمت لكن سليمان مالبيث أن نهض جالسا وقال بلهجة
حماسية كان لامفر منها لمن أجبر على خوض المعركة :
— سكينه .. أنا مسافر .. الشرف و .. كامل جمعة ..

المسافر

كان الوقت متأخرا عندما وقف فى محطة « طنطا » القطار القادم من « دسوق » وعدد المسافرين غير كبير فلم تبد الأرصفة فى هذه الليلة مزدحمة .. فمن السهل أن تلتقط العين شبح من تنتظره على الرصيف .

وسرعان ماتناهى إلى السمع والبصر همس الركاب إلى الجمالين ووقع الأقدام غير المنتظم واختلاف الاتجاهات نحو الممرات السفلية . وكل الناس يتحركون بسرعة لأن الشتاء كان فى مستهله . والذين لا يحملون متاعا يضعون أيديهم فى جيوب معاطفهم .. وهكذا فعل رجل ربعة يميل إلى الامتلاء يرتدى معطفا أسود رفع ياقته إلى أعلى وطامن رأسه بين تلك الدائرة الصوفية حتى كاد أن يختفى نصف وجهه الأسفل .

كان يتحرك بسرعة نحو الممر السفلى لايلى على شىء .. وفى نقل قدميه قوة وفتوة واعتزاز . تغلب الطمأنينة على ملامحه الواقع نصفها فى الظلام ونصفها فى النور .

وبداً يهبط سلم الممر المؤدى إلى الخروج .. إلى المدينة . وكانت فى رأسه أفكار منظمة ، بعضها يتعلق بالفندق الذى سيبيت فيه وبعضها يتعلق بالذين سيقابلهم فى اليوم التالى لإقامته فى المدينة .



سولت له نفسه أن ينظر وراء لكنه استنكف .

وعندما فرغ من هبوط السلم واستوى على أرض الممر شعر فجأة أن الرجل الذى خلفه ليس مسافرا عاديا بل كأن وقع أقدامه يتابع خطاه . وسولت له نفسه أن ينظر وراءه لكنه استنكف ومشى ببطء وهو ينظر إلى السقوف الفولاذية وإلى المصابيح الجانبية فى الممرات تارة بعد أخرى .

وملأت رائحة الرطوبة أنفه واستتب وقع الأقدام خلفه كأنها تطارده . فبدأ الشك يتحول إلى خوف ويمطلق غريزة الخائف ألقى هذا المسافر بنظرة إلى الوراء ..

كان النور ضئيلا فى الممر فى هذه اللحظة لاحتراق أحد المصابيح فيه وتضاعف المسافة بين المصباحين الآخرين . لكن عين المسافر التقطت هيئة الرجل خلفه . كان طويلا عظيم الجثة لا يميل إلى الأناقة واسع الخطو لذلك لم تكن سرعة المسافر تجدى عليه شيئا ، فبسهولة كان يدركه ويصبح منه على قيد ذراع .

ولذلك وقر فى نفس المسافر أنه سيلحق به عند باب الخروج .. عندما يتوقف المسافرون ليقدموا تذاكرهم إلى عامل الباب ، وعند ذلك .. وفى النور يستطيع أن يفحص ملامح هذا الرجل الذى بث الرعب فى قلبه طوال عبوره الممر حتى كأنه قضى فيه نصف عام

لكن عند باب الخروج حدث شيء أعجب فقد تقدم الرجل وخرج دون أن ينظر إلى أحد . حتى عامل الباب لم يطلب منه تذكرة . وبدا كأنه يهرب من عامل الباب أو كأن الأخير يتغاضى عنه .

لكن المسافر على كل حال تنفس الصعداء عندما وقف فى الميدان
الفسيح أمام مبنى المحطة وغمرت الأضواء وجهه وسرت إلى أنفه
رائحة الخيل والعربات وسعى إليه حوذى متدثر يعرض عليه أن يوصله
إلى الفندق ، عندئذ وضع قدمه وصعد ليجلس فى الناحية اليمنى لكنه
فطن إلى أن العربة تميل إلى الجانب الآخر حيث كان يركب فى الناحية
اليسرى ذلك الرجل الذى تبعه فى الممر . وقبل أن تزايل الدهشة
المسافر ، كان صوته القوى متناسب مع طولته يهتف بالحوذى قائلا :
« عربجى .. إلى الشرطة .. إلى قسم أول ١١ »



وكان هناك شىء هام يحرس حركة المسافر بدا واضحا فى يد
مرافقه فى العربة .. كان مسدسا ضخما . وكان وقع سنابل الخيل يبدو
واضحا ولا شىء غيره . أما المسافر فإنه كان يرى وجه رفيقه فى نور
المصابيح ثم فى الظلام تبعا لحركة العربة .
ويحاول أن يسأله لأى سبب هو مقبوض عليه .

لكن بدا كأن رفيقه يسمع صوت هواجسه فرقع صوته قائلا له :
لاتحاول أن تسأل فأنت تعرف كل شىء .

عندئذ أطرق المسافر نحو أرض العربة وحاول أن يتناسى أين هو .
وبدأ قلبه يدق بانتظام وصوت العجلات ووقع الخوافير يصل إلى سمعه
بانتظام ،

وملكته نفحة من السلام الغامض الذى لا ندرى له سببا والذى

لا يهبط عادة إلى القلوب إلا عند اليأس .

ولم يخرج من هذه المشاعر إلا شهقات رجال الشرطة الذين قابلوه
فى مدخل القسم وهمس بعضهم .. « ياه .. الوجوه تتكلم .. أما مجرم
صحيح » .

ولم يكن فى الحجرة التى أوصدوا بابها عليه أحد سواه . كان
يعلم أنه سينتظر فيها زمنا علمه عند الله . إنه على كل حال فى
انتظار المحقق . وخلع معطفه وجعل منه وسادة جلس عليها ومدد
ساقيه فى فضاء الحجرة وابتعد عن الحائط ..

وكانت الأصوات بعيدة عنه لعزلة المكان الذى وضع فيه . لكنه
كان يسمع بداخله هو كلاما كثيرا . أميز شىء فيه صوت امرأة هى أمه
كانت تهتف بأعلى صوتها والغيط يأخذ عليها مسالك الحكمة :

« .. كأنك لست ابننا .. ليس عندك شىء مقدس . وأنت فى
الرابعة من العمر كنت تذبح الدجاج بالزجاج وتقف ترقبه وهوترنج وأنت
غارق فى الضحك . وسرقت صرة النقود من الشحاذ الأعمى وأنت
تقوده فى الوحل .. وسرقت قرط أمك وأنت مراهق وأهديته إلى فتاة
ولم يكن فى بيتنا ذهب سواه .. كأنك لست ابننا .. ألا تنظر إلى أخيك
.. اجعله مثلا فى سلوكك .. لقد عفا عنك وأحبك مع أنك كتمت نفسه
وكدت تزحق روحه ذات ليلة بعد خلاف دب بينكما » .

ويختفى صوت الأم ليخرج من أعماقه صوت غليظ أجش مسترخ
كأنه متعب يلون اليأس نبراته لكن فيه رائحة من صوت قديس :

« ياربى .. كأنك لست ابنى .. ماعققت أبوى قط وتجازينى بالعقوق .. ومادخلت مركز الشرطة ولاوقفت أمام قاض عمرى .. السلام يلاً نفسى ولا أذكرالخوف إلا إذا رأيتك .. ألا تنظر إلى أخيك ؟! .. لشد ما أعجب حين أشعرأننى أب لابنين مثلكما .. لا بد أن تلقى جزاءك .. أنت مثل حى لعدم جدوى النصائح .. طريق الأخطاء أمامك مهد باستمرار . قلت لك ذات يوم إنك ستكون قاطع طريق ففقهت ضاحكا فلما سكت سألتك : هل آذتك نبوءتى ؟ فكان جوابك : بالعكس .. سرتنى وأرجو أن تتحقق .. لم أر ولدا مثلك كان معجبا برذائله ورذائل الناس .. لكن الناس سيقفون فى طريقك يوما ما كما وقفت فى طريقهم .. قلت لك ذات يوم إنك ستحيا فى غربة فأجبتنى بل سأحيا فى دنيا الغرائب .. فتمتع بما قنيت لنفسك .. غيرأننى أريد أن أسألك قبل أن تلقى مصرعك عن تحكم العادة فى الشخص .. ألم يكن فى إمكانك أن تختار هواياتك وعاداتك وتفحصها قبل أن تكون عبدا لها .. أنا واثق أنك ابنى ومن صلبى وستعرف الدليل .. ولوكان الأمر وراثه لما كان هناك مشكلة .. فشجرة أسرتنا - وأمك منها - حلوة الثمرات .. »

- احم احم احم ها ا ا ا ا ...

مع وقع حذاء ثقيل على باب الحجرة ، وهممة رجل كأنه حصان ثم سعال مفتعل يقول صاحبه « أنا هنا » قطع عليه جبل أفكاره فى الداخل فرفع رأسه إلى السقف وأرهف سمعه .. لم يكن مبتثسا بل كان

يتدبر كل ماسمعه داخل نفسه فى لذة تشبه الحبور . حواشيها قلق على مصير.. مصيرعزيز مع اختلاف وجهات النظر .

وجعل يتدبر الموت .. لقد عرف عنه الكثير.. رآه مالا يقل عن مائة مرة .. رآه أحمر قانيا .. ورآه هادئا كموت الذين يبتلعون النوم .. غير أنه شعر بأسى فى هذه المرة وخوف من الموت .. وسأل نفسه بأسف وحسرة :

هل حقيقة يستطيع الإنسان أن يختار عاداته مادام الموقف لا يرحم وقبل أن يصبح عبدا لها ؟! - كما قال أبى - ومصمص بشفتيه وفتش جيبه فوجد فيه سيجارة فأشعلها وأحس أنه يدخن بلذة تتناسب فى عمقها مع كثافة الأفكار وكأن وقع حذاء الجندى على الباب لا يعنيه بتاتا.. تناساه .. ومالئ أن نسيه ..

وجعل يتذكر وجوه الموتى .. وقطب جبينه فقد خطرت له فكرة رآها طيبة وطبيعية وعليها مسحة من الجمال .. نعم .. هذه الوجوه التى ماتت أمامه .. نعم .. نعم .. لا يكون الموت مؤسفا جدا إلا إذا كان الإنسان فيه سببا ثانويا .. ويكون بدرجة أقل مرة أخرى إذا توقفت الحياة من تلقاء نفسها .. طريق بدأ وانتهى .. أما أن يكون بيد الإنسان فذلك عمل كريمة حقا ..

ومن ثانيا هذه الأفكار عاد صوت أمه يخرج من أعماقه :
« كنت تذبح الدجاج بالزجاج وتقف ترقبه .. كأنك لست أبنى .. »
وبعد ذلك أخذ يطفىء السيجارة على أرضية الحجرة العارية

وسطع فى الجوى الضيق رائحة التبغ والرطوبة . وخشخش قفل وأدير
مفتاح وصر باب الغرفة وانفتح ثم نودى على المسافر فخرج وقد وضع
كفه على جنبه كأنه يعانى ألماً .

كانت نظرات الظفروالعجب بادية على وجه المحقق وهو ينظر إلى
المسافر . كان كلاهما فى الثلاثين من عمره وكل منهما يتمتع بذكاء
خاص .. كان الهدوء يخيم على المسافر .. مما جعل نظرات المحقق
فيها كثير من السخرية ..

— اسمك ؟

فأجاب بهدوء :

— اسمى .. سعد .. عبد العال ..

فضحك المحقق من أنفه .. وسأله مرة أخرى لكن بصوت يميل إلى
الغضب وبطء يؤكد نفس السؤال :

— أنا أقول لك : ما اسمك ؟

— سعد .. عبد .. ال ..

فقاطعه مرة أخرى :

— سعد أو سعيد ؟

— لا .. سعد ..

فنظر فى الصورة التى أمامه .. ثم نظر إلى الرجل .. وكانت
الصورة صورته بلا شك .. مع فارق بسيط هو تعبير الوجه .. نعم ..

التعبير .. الذى يحكى قصة الحياة أو خوالج النفس بدون حرف واحد ..
وأخذ المحقق يدق المكتب بطرف القلم ويحملق فى الفضاء حتى
وقع بصره ثانيا على الواقف أمامه .. فسأله كأنه يسخر منه :

- وصنعتك ياسيد سعد !؟

- طبيب ..

- طبيب !؟

- نعم ..

وعاد المسافر يقول فى نفسه : « ورأيت الموت مالا يقل عن مائة
مرة أحمر قانيا وأبيض هادئا كالذين يحملون » ..

فعاد المحقق مسترسلا فى الضحك يسأل :

- ولماذا جئت إلى مدينة طنطا ؟

- مدعو إلى محاضرة فى جمعية إصلاح الأسرة .

فحملق فيه المحقق .. ثم أطرق .. إن اسم « سعيد عبد العال »
قاطع الطريق غطى على كل شىء .. فكل الناس يعرفون أخباره
ولا ينسون اسمه . حتى أصبح اسم « سعد عبد العال » فى نظر الناس
إذا ماسمعه خطأ محققا . فلا ينبغى أن يكون هناك غير « سعيد »
فقال المحقق بهدوء :

- وضع الأمر بنفسك يادكتور سعد ..

- إن سعيد شقيقى .. أقولها بخجل .. إنه توأم لى .. نحن
اثنان متشابهان فى الملامح تماما مختلفان فى السلوك تماما .. فهو

يسلب « الحياة » على الطريق وأنا أحاول ردها فى المستشفيات ..ومن الممكن أن تتصل برئيس جمعية إصلاح الأسرة ليحضر إليك . فأنا . فأنا مغرم بالإصلاح الاجتماعى فضلا على أننى طبيب وربما كانت حياة شقيقى سببا فى سلوكى ولو أن أبى كان يقول لنا حول هذا كلاما كثيرا.

وأطرق وكأنه يسمع صوت أبيه « ألم يكن فى إمكانك أن تختار هواياتك وعاداتك قبل أن تكون عبدا لها ؟ أنا واثق أنك من صلبى وستعرف الدليل .. »

وأفاق الطبيب على صوت المحقق بعد أن دخل رجل بمعلومات جديدة :

— من الممكن أن تتفضل فتستريح إن شئت ومن الممكن أن تنصرف .. وإن كان أسفى على أننى لم أنه قصة « سعيد عبد العال » يعادل سرورى بقاء الدكتور « سعد عبد العال » .. وسأستمع إلى محاضرتك غدا فى جمعية إصلاح الأسرة .

سلوان

كان يسائل نفسه كلما دخلت عليه : « لماذا يبدو عليها التفكير هكذا ؟! » ولم يكن هو فى حقيقة أمره من الذين يملكون الجرأة للكشف عن أسرار الناس .. لم يكن فضوليا . غير أنه لم يستطع أن يتناسى هذا السؤال منذ عيشت الأتسة « آمال » كاتبة فى الحسابات تحت إشرافه فى المؤسسة .

ومنذ رآها فى أول يوم ازداد إيماننا بأن المهن قد لا تختار أصحابها فى كثير من الأحوال .. نعم .. فعودها الدقيق وكفها الصغيرة ومزاجها العاطفى المتقلب .. وعيناها اللتان تتعارك فيهما أفكار وذكريات أكبر من عمرها ذى العشرين عاما ... وصوتها الشاكى حتى فى حالات السرور - كل هذا ينفى عنها بتاتا صفة كاتبة حسابات ويرشحها ... لماذا ؟! ..

كان يفكر وهو غارق فى « المراجعة » عما تصلح له الأتسة آمال ... ظل يجمع وي طرح بذهن شارد ... وتناهى إليه عزف « بيانو » من أحد البيوت القريبة يختلط عبيره بضجيج المواصلات كما تختلط أرقام الحسابات بأفكاره عنها .. عندئذ وثب إلى ذهنه خاطره أنها لا تصح إلا أن تكون « عازفة » ..

وابتسم لأفكاره ونظر إلى مكتبها الخالى فى حجرته . ثم نظر فى

الساعة . إنها تكاد تبلغ التاسعة . ووجد نفسه يسأل نفسه من خلال عمليات « الضرب » وضجيج المواصلات وعبير العزف : « لماذا تأخرت اليوم ١٥ »

وأحس بيد تقبض قلبه بلطف لكنه كان فى عنف لمسة المجروح . ومط شفته اشمئزازا من فكرة أنه سيتعلق بها . رأى ذلك محالا . فحديث الحب عنده فراغ أو لهر أو خرافة . وهوليس فى فراغ ولا من طبعه اللهو ولا يؤمن بالخرافات ..

وعاد يراجع الحسبة أمامه فإذا بها مليئة بالخطأ . فابتسم .. ووضع قلمه وطلب فنجالا من القهوة ثم عاد ينظر إلى مكانها الخالى . وفى هذه اللحظة سمع وقع حذاء عال مستعجل الخطا على بلاط الممر الطويل المؤدى إلى الحجرة .. ثم ثم مالبث أن رآها داخلة تحبى وتعتذر وتجلس وتخلع قفازا وتتنهد وترمى بإحدى خصلات شعرها الدانى إلى الراء - كل هذا فى وقت واحد .

فى هذه الوهلة أحس بالهدوء والراحة . لم يكن شاعرا بقلق ولا تعب يرتفعان إلى مقدار ما أحس به من هدوء وراحة عندما دخلت . فجعل يسأل نفسه عن اختلال النسبة بين الضدين كأنه يعمل معادلة حسابية ثم مالبث أن انصرف عن أفكاره كأنما عد ذلك خسارة ... خسارة ألا يراقب هياتها فى هذه اللحظات .

وكانت قد أخرجت من حقيبة يدها منديلا صغيرا وأخذت تمسح ماتحت عينيها .

لم يكن هناك دموع .. ولكن .. وجهها كان كسماء تنذر بالمطر .
 بادية القلق والرقّة والانكسار . ولو أنه هو الآن فى الخامسة والثلاثين
 إلا أنه شعر نحوها بالأبوة . الحزن على زاويتي قمها كأنه بيت شعر
 يوقظ الحماسة . وجد نفسه على وشك أن يسألها سؤاله المألوف :
 « لماذا تأخرت .. خيرا .. » فألفاه تافها لامغزى له وفى هذه
 اللحظة أخرجت هى ورقة ملفوفة ومنها .. سندوتش صغير الحجم ..
 ومن خلال ابتسامة مغتصبة ألقّت إليه بكلمة « اتفضل » ثم قطمت
 منه .

كانت تأكل بطريقة من يريد أن يحفظ لنفسه الحياة فقط . وتعمل
 بطريقة من يريد أن يحرق نشاطه كليا . وتتكلم بطريقة من يريد ألا يقول
 إلا المطلوب . وكان على وجهها اليوم علامات سهر وأرق . يلفها سور
 من صمت متعمد .

وعاد هو فأكب على الأوراق . وكان صوت العزف يصل متناثرا
 من خلال الضجيج . خيل إليه أنه تحول إلى رشاش معطر يتناثر على
 وجهها الساهم من فوهة « بخاخة » .

لكنه على كل أحس بشيء يستيقظ فيه . أحس بالخوف من حبها
 ومن التجربة المرعبة ، تجربة أن تأخذ فتاة من زوجته وولديه . كلا ..
 أو جزءا .. وهو كرجل يؤمن بالأرقام ، يؤمن أيضا بأن أدنى درجات
 الخلل يوهى البناء كله كسقوط « الصفر » فى حاسبة ما ..

وكانت هى تأكل .. قطعة وجرة من كوب الشاي ، ورائحة عطر



ولكن .. وجهها كان كسماء تنذر بالمطر

وحشى - غير متناسب مع منظرها الوداع - قلاً جو الغرفة .
ثم مالبثت أن فرغت من طعامها . ورآها من بين أهدابه مكتبة
على العمل تحت عينيها هلالان من زرقاة البنفسج .
فسمع نفسه يهتف فى نفسه : « إنها تحترق !! ترى لماذا !؟ »

ولم يكن هذا التفسير إلا ترجمة عن شعور يهدده لم يبلغ الذروة
بعد . بدت بواده ليلة أمس .. الليلة الماضية فقط ... حين فطن إلى
نفسه وهو يوازن فى صمت ثقيل بين أنف وأنف . وفم وفم . ثم اللون
والشعر والصوت .. لها هى .. ولزوجته !!
ثم تماسك فى مكانه . وقف عند نقطة معينة من الأفكار كمن
يخاف أن يتدحرج . والتقط أكبر أبنائه من على الأرض ورفعهم وصار
يقبله بأعلى صوت حتى ملأ سمع نفسه بصوت قبلاته . وذهب إلى
مكان ما من المسكن وأحضر الراديو ليبدد أفكار نفسه ..
كان ذلك أمس ... فى سواد الليلة الماضية ...
لكن الأنسة ظهرت له اليوم كحقيقة لا تقبل الجدل . كحركة الجنين
غير المرغوب فيه فى بطن الأم . ليس هناك طريق ثالث بين الإجهاض
والاكتمال . ومع انعدام الطريق الثالث فإن للطريقين مخاطرها
وأوجاعهما .

قام فخرج من الحجرة لا يدرى إلى أين ، بدا له الممر الطويل

العارى من « المشاية » المؤدى إلى السلم مثل برزخ ما بين الجنة والنار.
فمشى ساهما لا يأبىه لسؤال أحد من الجمهور وكأن الضجيج الخارجى
صدى لما فى نفسه .

ونزل إلى الشارع ثم عاد . قطع نفس الطريق . عبر الممر ودلف
إلى الحجرة . وعندما سمعت هى وقع أقدامه نهضت كمن وجد الحل .
هفت بصوتها الواهن :

— أستاذ كامل ... جئت فى الوقت المناسب ... طلبونى فى البيت
لأمر طارئ . وكان لابد أن تحضر قبل أن أنصرف ... تسمح !؟
فسأل باهتمام غير مألوف :
— ممكن أن أعرف مابك يا آنسة .

وفتح اهتمامه بابا كان مغلقا . فتحد على نفسه وعلى الآنسة .
فلم يكده يكمل سؤاله حتى أجهشت بالبكاء .

أحس بالألم والحجل والحيرة فى وقت واحد . بل ... ويشعور
مغشوش . شعور من سبب لها كل الآلام التى سكبت دموعها .
فقام وأمسك كتفها . ورجاها فى هدوء أن تجلس على كرسى وقدم
لها قرصا من الأسبرين وجرعة من الماء .

ومالبثت أن تمالكت نفسها . ثم ابتسمت تغالب بقية دمعها ..
أما هو فكان فى استكانة من غلب تماما على أمره .

ظلل صمت كانت عيناه فيه ترعى محاسن وجهها قطعتة عليه بأن
رفعت وجهها إليه وقالت معذرة :.

- متأسفة .. أنا متأسفة لما حدث !!
- بالعكس . متأسف أنا .. أنا الذى ..
فقاطعته :
- هل تسمح لى بالخروج ؟ آه .. (وضحكت من بين أسنانها كفتاة غريبة عن التى كانت تبكى) عندنا ... حادث سعيد .
وعادت تضحك فى خفوت ووجهها نحو حجرها كما يغرد طائر
نصف نائم . فسأل :
- من ؟
- زوجة أبى !!
- آه !! .. زووجة أبيك ؟
فهزت رأسها مؤمنة وعادت ترمقه بكل عينيها .
- أنت بلا أم ؟
- منذ طفولتى .
- ولك إخوة ؟
- منها فقط !!
فابتسم السيد فى بطاء كمن تفهم معضلة :
- وهى التى .. تلد ؟
فأطرقت خجلا واستطرد هو :
- وبهذه المناسبة ... ما موقفها من فكرة ... آ .. زواجك ؟
فغالبها البكاء . فنهضت ومدت يدها مصافحة وهى تقول فى

تهالك مؤس :

– فى وقت آخر ... أرجوك ... سعيدة .

عندما دخل المساء أخذ يحس بوحشة الليل . ومع الوحشة واستطالة الوقت وانتظار اليوم التالى بدت له الآتية آمال حقيقة لاتقبل الجدل .. كحركة الجنين غير المرغوب فيه . وفى هذه اللحظة كانت الساعة تدق التاسعة فى إحدى زوايا البيت فذكرته تلك الرنة المألوفة بأزمات سن الشباب الأول وكأنا عادت تقص عليه – بحركة البندول – ذكرى كبوات العاطفة . ف شعر أنه يعيش فى الماضى لكن – مع وخزة حزن – خيل إليه أنه دون مستوى الصراع الذى بدا فى هذه الليلة مثل جبل يسد طريق الأفق .

كانت الساعة ترسل آخر دقائقها . وماكاد السكون يستتب حتى سمع صراخ طفله الصغير. خيل إليه أنه حاد .. إنه نوع غير الذى يسمعه منه كل ليلة . وكان صوت أمه يناغيه قليلا أو يلهيه ثم يتركه فى يأس . ويعود السيد إلى أفكاره فلا يلبث أن يعود الطفل إلى صراخه .

جعل هذه الليلة يفسر صرخة الطفل بقلبه .. شعر أنها احتجاج ورفض وحنين ... ثم لحظات يأس ودمعة مقهورة . ثم عودة إلى أول الحلقة .

وبعد ساعة نفذ كل هذا إلى قلبه . شعر أن طفله محتاج إلى

معونة فقام ليسأل الأم .

ابتسمت والآسى على وجهها . لم ترد على سؤاله . كانت تربت
ظهر الطفل عله يهدأ . وكانت خلجات من النوم على أهدابه . لكن
الأب رأى كف ابنه الصغيرة تتسلل نحو صدر أمه . والأم تحول بينها
وبين ماتريد ...

فابتسم الأب . فقد كان ابنه أيضا فى صراع ... امرأة تريد أن
تفصله عنها... تريد له أن يفطم . فولاهما ظهره وخرج .

وبات طول الليل يستمع إلى الأثنين . كأن الحياة فى إحساس هذا
الصغير ركزت فى جرعات اللبن ... كل الفواكه والطيور واللحم ..
والحب والحب .. وهو وهويقاتل لإقرار دستورته بدمعه وقلبه .

وعندما يغالب النوم الثلاثة يستيقظون على صرخة حنين هى فى
واقع الأب صدى حلم ليلته . وواقع الأم مر وحلو مثل واقع الطفل من
مرارة « الصبار » على ثدى الأم تخالط حلاوة اللبن .
وهكذا بات الثلاثة ...

وعند الصباح كان ذاهبا إلى مكتبه وهويحاول أن يتمثل أزمة
طفله ويعيشها . لكنه عندما دخل ... لم يجد الآنسة .. ولم تحضر
اليوم .

وفى الليلة الثانية عادت التجربة نفسها . تجربة الحنين والبكاء .
وذهب الأب إلى مكتبه فى الصباح فلم يجد الآنسة . فخیل إليه أن
القدر أعاده طفلا صغيرا ... كتب عليه الفطام ودهن ثدى أمه

« بالصبار » .

فجلس يحملق فى مكانها الخالى . ويتصور أن خلوه بالنسبة إليه
أمثل وضع . فقد كان يمشى مع طفله فى طريق واحد . كل منهما مجبر
على السلوان .

بعد خمسة أيام عادت الآنسة ..

دخلت فوجدت نظام الحجرة مغيرا . مكتب الأستاذ كامل مكان
مكتبها غيرمكتبين آخرين جلس على أحدهما رجل مسن وعلى الثانى
شاب نحيل وخلف كل منهما رفوف ودوسيهات .. دنيا .. تغيرت
معالمها .

ولم يكن الأستاذ كامل حاضرا . كان فى الإدارة العامة ..
وعندما دخلت الآنسة ضحك فى وجهها الرجل المسن وقال وهو يهرش
بالقلم خلف أذنه ويبتسم من خلال طقم الأسنان :

— مكتبك تحت يا آنسة ...

— وأين الأستاذ كامل ؟

فرد نفس الموظف :

— الآن ... فى الإدارة العامة ... ومن هناك إلى البيت .

كانت الآنسة تستدير لتأخذ طريقها إلى مكانها الجديد لكن
الموظف المسن استوقفها وهو يقدم لها يده بشيء وهو يبتسم :

— خذى هذه !!

— ما هذا ؟

فقال من خلال ضحكة :

- قطعة شيكولاتة .. قدمها لى الأستاذ كامل مما اشتراه لابنه
المفطوم .. (هى هى) ليس لى أسنان لأمضغها .. خذيها أنت .
أخذتها الأنسة فى هدوء لم يخل من الحزن . وقفت قليلا فى
وسط الحجرة ثم التقت عيناها بعينى الشاب ... كان ساهما قلقا
يدخن ناسيا نفسه . تقدمت إليه ومدت يدها بقطعة الشيكولاتة قبل أن
تخرج وهى تقول له بصوتها الوانى :

- أنت الذى تستطيع أن تأكلها . هل تحب أن تأخذها ؟

فقال بدهشة وسعادة :

- نعم نعم نعم ...

سلا الطفل الرضيع ثم سلا الأب كذلك . أما الشاب النحيل فقد
لوحظ عليه بعد أسبوع من أكله الشيكولاتة أن كشوف حساباته أضحت
مليئة بالأخطاء .

الشارع الخالى

نسيم الإسكندرية فى لطافته المعهودة .. رطوبة وركود ومخاوف .
ولا على الكورنيش مصباح يتوهج ولا فى الأحياء كلها . ونظرة إلى
المدينة من نافذة أو سطح أو مئذنة أو برج تدل على أنها « تختبىء »
وأن الحرب فرضت عليها - غصبا - أن تلم أنوارها وأهلها وتخبس
صوتها و« تختبىء » فى خيمة من الظلام ..

وفى الجو روائح غريبة لم يشمها أنفه لم تعط رائحة البحر ولا
أعشابه حتى فرصة التطفل . بارود واحتراق .. وأخرى من الممكن أن
تكون رائحة توتر .

وعجب فى نفسه كيف يشم للتوتر رائحة . كانت شائعة فى الجو
فى هذه الفترة التى تفصل بين غارة وغارة ، وكان يمشى فى الشوارع
على غير هدى والظلام حالك زاده حلقة أنه هو شخصيا يعتبر نفسه قد
ضل الطريق ، فما كان محققا فى خروجه فى هذه الليلة لكنها قضية
هامة كان من الضروري أن يستشير فيها صديقه كاتب المحامى
المشهور .

على كل فعلية أن يعود ، ولم يكن عنده فكرة عن صمت الأحياء
الراقية القريبة من البحر فى مثل هذه الحالات . لقد استحالت إلى شىء
أخرس تحرسه الأشجار والأسوار لكن فى الأحياء الوطنية التى يسكنها

فإن هناك ناسا يسألون عن ناس ، وأسماء تتردد بأصوات عالية فى أشد حالات الخطر .

كان إلى يمينه سورمتمد عليه نباتات مزهرة . لم تصل إليه رائحة الخضرة ولا الزهر. وجد نفسه مشغولا وهوميشى بأقصى سرعته فى البحث عن باب فى هذا السور كأنما كان فى ذهنه - دون أن يعى - أنه سيدخل فى ساعة الخطر .

وظل ينظر إلى السور وهو يفكر « لماذا هو خائف ؟ » لكنه فر من الجواب قائلا : « كل الناس يخافون والحيوانات والطيور » ومن خلال هذه الفكرة خطرت له فى لظلام صور الذين يحبهم فعلم خوفه بأنه من أجلهم .. صورة زوجته التى لم يمض على زواجه منها سوى سنتين ومنديلها الحريرى الشفاف تعصب به رأسها والفرق الأبيض فى شعرها الفاحم ... وابنه « نبيل » ... ما أعظم بسمته ..

أحس أن الظلام قلت كثافته عندما ذكر بسمته ابنه ثم عاد ثانيا إلى الحلوكة .. وأخذ الشارع فى الالتواء والانخفاض الملحوظ وسار جنب الحائط حتى يأمن العثرات فإذا به يفيق من أفكاره على صدمة : « آه » وتطايير من عينيه شرر كثير عاد بعده الظلام . كان يمشى بسرعة فلم يستطع إلا أن يجلس على الأرض .

ولم تزد على آهته حتى نحنحة إنسان . فأحس فى هذه اللحظة بإحساس الجرحى يتركون فى ميادين القتال بعد انسحاب الهزيمة . حاول أن يقوم فلم يستطع وتحسس وجهه فإذا به لزوجة دم . وبالقدره التى

يستمدّها الوحيد عادة من كياته فى مواجهة الخطر نهض واقفا وبدأ
يتحسس كل ماحوله فقد كان فى ظل شجرة كثيفة الورق رمت على
الأرض ظلمة فريدة . وفجأة تبين أنه يمسك بشيء على الحائط عرف أنه
صندوق البريد . وأن الصدمة كانت منه .

لكنه حمد الله على أنه لم يذهب ضحية شظية كآلاف الناس
الذين ماتوا . وارتدت إلى قلبه الطمأنينة عندما أحس أن جرحه
سطحي . لكن الطريق بدا له طويلا .

وعاد إلى الخط الأول من تفكيره يسأل نفسه : « لماذا يخاف ؟ »
... ماذا لو كتب عليه أن يكون فى الميدان ؟ » ولم يجد جوابا . كل
ما أحسه فى هذه الوهلات وأمثالها هو كره واشمئزاز من الحرب . ولجأ
إلى تعليل بسيط وهو أنه يكره الموت ككل الناس ويكره كذلك أن يرى
وجوه الموتى .. حتى وجه أحب الناس إليه... أمه ... طالما نادوه
بالصراخ أن يأتى فيلقى على وجهها نظرة .. فهرب !!

وعاوده وجه ابنه « ما أجمل بشاشة الحياة فيه .. نداء صامت
كمناطق الربيع ، على كل حال بينى وبين بيتى ربع ساعة ما أطولها ! » .
ولاح له ميدان فسيح كان عليه أن يعبره . بدا كأنه ملئ بالماء
وكأنه سيفرق فيه . أحس أنه معرض للخطر أكثر من قبل فرفع ذراعيه
فوق رأسه على شكل ظلة ثم مال بث أن سحبها وهو يبتسم .

ولم يدرك لماذا رأى الأرض أكثر استنارة . رقعة الميدان تكاد تكون
واضحة المعالم .. فى وسطه الجزيرة الكبيرة وباقية أعمدة النور المطفأة

.. ورفع رأسه إلى السماء فرأى نجوما تتوهج فى صمت وغمز وعدم
مبالاة فكانه رآها مسئولة عن ظلام الأرض . وأخذ ينقل خطواته بسرعة
ويفكر فى حنق فى هذه الليلة . وعلى مقربة من الجزيرة بدا صندوق
قمامة ضخمة عليه غطاء من الظلام . وعلى مقربة منه كان شئ ممددا
فى وضع غير منظم يدل على أنه تداعى فجأة .

سرت فى جسمه قشعريرة عندما تبين أن هناك قدمين مرفوعتين
وساقين ممدودتين فى بنطلون أبيض ساعده على الرؤية .. ولأول مرة يرى
منظرا كهذا .. لقد سمع الأقاصيص التى تشبه الأساطير فى هذه الفترة
عن غارات الإسكندرية لكن القدر أوقفه الليلة وجها لوجه أمام تجربة
حية .. مع هذا الرجل الميت . وفكر أن يحيد عنه لكنه قال فى نفسه:
« ربما كان فيه بقية تحتاج إلى إغاثة » وذكر أنه يحمل ثقابا فأشعل
عودا وأكب راکعا عند رأسه ويده ترتعش وهو يدرك خطر إشعال الثقاب
لكن شيئا مجهولا دفعه نحو المغامرة . ربما كان طموحه إلى أن يذوق
معنى الاندفاع أو الشجاعة . وعلى تراقص الشعلة رأى الدم والعين
التي فارقتها الحياة وهى جامدة كقطعة من البرد ..

لم يحس بعد ذلك بشئ واضح . كان يمشى فقط . وأعادته إلى
صوابه عودة الأمان إلى قلبه عندما بدا له الحى الوطنى الذى يسكنه
بأبوابه المتقاربة والأصوات التى تنبعث من كل مكان . ورائحة سمك
مطبوخ وبكاء طفل ... ومناغاة خيالية وراء كل نافذة مغلقة !

وأحس بشوق إلى زوجته كأنه عائد من حرب . شوقا ليس قلبيا فقط لكنه بكل الكيان . وبذكر ليلة ولادتها لنبييل وهى تضغط بكفها الوسائد والأيدى وكل شىء حولها حتى الهواء . وتصور وهو يدلف إلى الشارع المؤدى إلى نهاية الحى أن ابنه ناله مكروه . فقد كانت أمه تنزل به إلى حوش البيت وأحيانا - عندما تتأزم الأمور - تجرى به وقد غطته بقلبها إلى مخبأ فى أرض فضاء.

كان لا يزال مستغرقا فى هذا الخاطر. وأنساه خوفه على الحى جزعه من رؤية الميت . وهناك سور واطىء متآكل فى عدة مواضع لمدرسة أهلية .. طويل ممدود .. يقع على يساره ، وعلى يمينه جزء من الفضاء الذى زحف إليه الحى ودكاكين مغلقة بأبواب من الصاج .
« أخشى أن تكون تركته نائما ونزلت هى كما يحدث من بعض الأمهات .. غير معقول !! »

كان يمشى فى وسط الشارع لأنه شديد الهدوء حتى فى النهار . لكنه مالبث أن رأى بركة ماء صغيرة لمعت فيها نجوم السماء نشأت هذه البركة من خلل فى أنابيب المياه فألجأ هذا إلى الصعود على الرصيف ومشى حذرا جنب السور وهو يكاد يكتم ضحكة من العقبات التى اعترضت سبيله هذه الليلة .

عاد فسأل نفسه عن حقيقة هذه العقبات .. « ماذا تكون بالنسبة لما يراه الغير؟! » ووثبت إلى خياله حوادث بعض الأفلام التى رآها التى صورت ماتعانيه الطاقة البشرية أحيانا لكنه لم يستغرق كثيرا فقد

سمع صوت بكاء ينبعث فى السكون .

جمد فى مكانه .. وأخذ ينظر فى كل اتجاه . كانت النجوم تلمع فى الماء المراق على الأرض .. وفى السماء أيضا . والسور على وشك أن ينتهى . وبعد نقطة انتهائه ساحة كبيرة لاتأخذ شكلا هندسيا معينا بها عدة نخيل للزينة على مقربة من ضريح . ووقف عند نهاية السور ... بدا المكان مهيبا بالنخيل المشعث والظلمة والماء ولعان النجوم . وأحس أن صوت البكاء يمزق قلبه .. صوت طفل على وشك أن يختنقا ! ووقف عند نهاية السور ونظر فى الساحة الممدودة وتذكر المنظر الذى رآه منذ مدة هناك فى الميدان .منظر الرجل الذى قتلته شظية .

أحس أن شيئا يناديه هناك عند الضريح . فقد كان عند الضريح إنسان حى . أما الشارع فقد حوى ميتا .. ميتا .

لم يستشعر شيئا من الخوف . تقدم يخترق الساحة المقفلة فى المكان المظلم . ميمما نحو الصوت حاسبا فى نفسه أنه ربما كان إلى جانب الطفل إنسان آخر .. ظاهرا أو مستخف .. رجل أو امرأة . لكنه - إن كان - فهو إنسان عاجز أن يفعل من أجله شيئا .

وارتفع بكاء المولود كأنه أحس بوقع خطوات من سينقذه . وعجب الرجل فى نفسه عندما لامست كتفه ساق إحدى النخيل من ظلمة الحרב فى هذه الليلة .. فلا الروح التى ذهبت ولا الروح التى أقبلت .. لا الميت ولا المولود .. وجد فى هذه الليلة حيث يجب أن يكون .

وتنهده .. فكاد يطفىء عود الثقاب وهو يشعله ، ورمى نورا على

المكان الذى لم يكن غريبا عليه فقد كان يعرف معالمه فى النهار لقربه من الحى الذى يسكنه ، وتراقصت الشعلة الحمراء فرأى على ضوءها الباب الصامت الواطىء كأنه لم يفتح منذ أعوام .. والدرجات الحجرية الأثرية الموصلة إليه ، وعند الباب المقفل تماما وضع الطفل فى لفائف داكنة .. ولم ير شيئا أبيض ، إلا شبحا ضئيلا لشيء صغير يقترب منه لم يسمع له وقع خطوات بل تسلل كأنه مخلوق بلا أرجل .

كان عليه أن يخاف لكنه فى هذه المرة وجد نفسه مصرا على الاقدام . وكأنما هتف فى داخله صوت آخر يعيره بالفرار من كل شيء . من الميت والحى . فلم يتزحزح قيد خطوة عن إرادته .

وبسرعة ولهفة أشعل عودا آخر مع علمه بخطر ذلك فى ليالى الحرب فرأى على مقربة منه كلبا لم تبد المسالمة فى عينيه . بدا على مقربة من الطفل مثل روح شريرة تستفتح أيام عمره . وكشف الكلب عن أنيابه وزمجر وتوقف الرجل يفكر فقد كان خصمه مستعدا للهجوم . وخطر على باله أنه ربما أذى الطفل فمن المؤكد أنه ليس موكلًا بحراسته .

وفكر الرجل .. ليس من مصلحته أن يبدأ الهجوم فليس معه سلاح يدافع به هذا الحيوان . فوقف جامدا فى مكانه مؤملا أن يتغير الموقف فكثيرا ما يحدث أن تفر الكلاب الضالة إذا ما ثبت أمامها إنسان حتى ولو كان بلا سلاح . لكن الحيوان ظل يزمجر ..

وأخذ الطفل يبكى باختناق يكاد يقطع أنفاسه فصمم الرجل على

أن يتقدم إليه ثم يرى ماذا سيفعل الكلب لكن الحيوان سبقه وأخذ يزمجر ثم هجم عليه هجوما أكيدا ذكره - وقد أخذ فى الدفاع عن نفسه - بما سمعه عن الذين يموتون وهم يقاتلون قوى . وأنهم يموتون سعداء .

وتمثلت له الحرب بكل أوصافها وأعراضها عندما وقف الحيوان على قدميه الخلفيتين وتقدم نحوه وتراجع هو فإذا به يتبعه ونجح فى خلع سترته الصوفية . وألقاها على رأس الكلب وأمسك بأطرافها على رأسه فى حركة سريعة مستميتة . وعندئذ تحول نباحها إلى أنين ولم يعد بكاء الطفل يصل إلى سمعه فقد كان مشغولا بالقتال من أجله ، ولم تكن هناك حركات مدروسة من أحد الطرفين فقد كانت حقيقة الموقف أن حيوانا يقابل آخر كل منهما يريد أن ينفوز بحياته فى هذه اللحظات بالذات كما يفعلون فى ميادين القتال . واستطاع الرجل أخيرا وبعد عناء أن يجعل عدوه تحتته . كان ثقل الوزن وبما أنه كان آمنا من أنيابه محكما الرباط حول رقبته فقد أحس أن قواه قد بدأت تنهار وأخذ عواؤه يخفت وهو يعانى هبوط الاختناق . فحمله إلى أعلى ثم أخذ يضرب به الأرض حتى خمدت أنفاسه . ولما خمدت أنفاس عدوه أحس هو أنه استرد حياة نفسه وعند ذلك ارتفع صوت الوليد بالبكاء كأنه يذكره بوجوده . جلس والعرق يتصبب منه . ولم يشعر بالخدوش التى أصابته من أرجل عدوه بل كان فى تلك الوهلة يشعر بها عادة كل حى نجا من المخاطر .

كان يلهث . وأحس بظما شديدا . ورفع رأسه إلى السماء فإذا

النجوم تلمع وتتغامز فى صمت لايبالى وتلقى بنورهزيل على المدينة
المختبئة .

وقبل أن يسترد نظرتة لمح شعاعا كشافا يتحسس طريقه فى الأفق
تحسس الشك . فى تلصص وتردد . فأفاق تماما . عرف أن خطرا على
وشك الوقوع . فجرى نحوالطفل فى اللفائف وحمله ومشى . وقطع
الساحة المقفلة حتى وصل إلى الشارع . كان الطفل يبكى والعرق
يتصبب من الرجل وأثار جراح خلفها الصراع بدأت تدل بنفسها على
مكانها من جسمه لكنه على كل حال كان يحس بنشوة من قاتل ذات
مرة - ولو بدون قصد - فى سبيل روح يجب أن تعيش .



كانت زوجته تطل من الشباك فى الظلام بعد أن استبطأت عودته.
كان القلق ينهش قلبها. وبعد ن أخذ اليأس يناوشها سمعت وقع خطواته
على السلم . فتحت له الباب فدخل وارتمى على السرير . ولم يجب على
سؤال منها . فقد شعر أنه سيبكى إذا تكلم .
وجرت نحو المطبخ وعادت بكوب من الشاي وجلس يشرب وهو
زائغ النظرات . ورأت الجرح فى جبينه والجهد على وجهه كأنه غيرالذى
خرج من عندها من قبل المساء .

دقت على صدرها وسألته فى صوت عصبى :

- ماذا حصل لك ؟

فهمس وهو يشرب :



لا الميت ولا المولود وجد فى هذه
الليلة حيث يجب أن يكون ..

- لا شيء .. كنت .. فى ..

- فى .. فى .. أين كنت ؟ ..

همس :

- فى الحرب !!

ردت بذهول :

- فى الحرب ؟ .. فى الحرب ؟

وضع الكوب الفارغ على منضدة قريبة واسترسل يحكى ..

قالت الزوجة وقد لون الأسف صوتها :

- كل هذا فى ليلة ١٢ ياسلام .. لكن .. زاد حبي فيك ألف مرة

لإنقاذك للطفل .. سيحوله مركز الشرطة لأحد الملاجئ .. لا حول ولا

قوة إلا بالله .. لكن فى أيام الحرب هذه رأينا كل شيء يفعل فى

الشوارع .

وصمتت ثم رفعت صوتها كمن تذكر شيئا :

- نبيل .. قال « بابا » ثلاث مرات وأنت فى الخارج .

- آه .. ثلاث مرات فقط .. طبعاً هولا يعلم أنى قلت « ابنى »

ألف مرة فى هذه الليلة ..

الوجه الطيب

« ما أعظم الفرق بين هذين الولدين !! إنهما شقيقان لكن الفرق بينهما كبير .. » .

وكثيرا ما كان أبوهما يطرق مفكرا فى هذه المعانى . إنه يحب « أحمد » أما « فتحى » فذلك ولد كره .

كثيرا ما أطرق الأب مفكرا فى هذه المعانى متسائلا عن السبب . إنه يحب « أحمد » صاحب الوجه الطيب .. ياسلام !! إن بشرته البيضاء الصفراء وعيونه السوداء وهدوءه المفكر - ليذكره بوجوه العشاق تحت ضوء القمر . فقط .. لو يرتفع مستواه فى المدرسة قليلا . دفعة إلى الأمام لأحمد تجعله فى نظر أبيه ولدا مثاليا .

إذا جلس فى أحد أركان البيت لا تكاد تشعر به . بل ربما لا يكون من المبالغة أن يضاف هدوءه السكينة على كل ضجيج .

أما فتحى فهو مثل الزوينة .. ليس فى نحول أحمد ولا ميوله للأحلام . وجه مكتمل مورد وفى عينيه العسلية ينقطة الصياد . يصخب دائما حتى فى تفكيره يقتل السكون حتى فى الصحراء .

وكان الأب يفكر فى ذلك ويحاول ألا يسمح لقلبه بكراهية أحد . غير أن الأم دخلت إليه فى هذه اللحظة شاكية منه .. من فتحى .. إنه لا يكف عن طلب النقود ويذهب كثيرا إلى السينما ..

وتلون صوت الأم بالبكاء وهي تستطرد :

— ويهدد بسرقة نقود من البيت إذا لم نجب مطالبه .

ثم تهالكت على كرسي أمام الأب . ولم يرد الأب عليها . كان يتأمل علامات الأسى والضيق على وجهها الأبيض الأصفر الذي كأنما انسكبت عليه أشعة القمر . وأحس نحوها بحب شديد وكذلك بنسمة حب رقيقة نحو ابنه الثانى .. أحمد .. ذلك الذى لا يطلب شيئا ولا يكلفهم بشئ . ولا يرفع صوته بالضجيج ولا التهديد .

ولم يتكلم الأب . حمل رأسه بين كفيه وأخذ يفكر . وأحس أن نسمة الحب حركت قلبه . إن وجه الشبه بين أحمد وأمه كبير فهل خدم هذا التشابه قضية الحب فى قلب الأب بالنسبة لابنه أحمد . أو لعل التناقض بين تصرفات الأخوين هو سبب هذا الإحساس .

ورفع الأب صوته فجأة مناديا على فتحى . فجاء من آخر المسكن وقد انسدت خصلة من شعره على جبينه فى إهمال وانحسرت شفته السفلى عن سنة مكسورة ، وقبل أن يكلمه أبوه رأى فى ملامحه شيئا يعرفه من قديم .. ملامح صورة شخصية لا يزال يحتفظ بها كان قد التقطها بمناسبة نجاحه وهو فى مثل هذه السن . وأحس الأب بحنين مبهم وكاد ينسى صورة الثانى الذى يطابق منظره منظر وجه أمه الجالسة أمامه وقد رفعت عينيها فى ابنها بغیظ شديد .

وخيل إلى فتحى أن والده قد نسيه فى وقفته فقال برفق كأنه ينبه

نائما :

– نعم يا بابا .

فأجاب الأب :

– صحيح إنك تهدد بسرقة نقود من البيت .. أنت تعرف أنها
جريمة .

– وهل سرقت ؟

– لكن التفكير فى الجريمة ربما يؤدى إلى الجريمة .

– الذى قتلته لأمى بالحرف هو أن الذى يطلب أحسن من الذى
يسرق .

– إيه .. آ .. آى .. طيب .. امش من قدامى .

وأشار الأب بطرف كفه فانصرف الغلام . وقالت له زوجته عاتبة :
هل هذا كل ما هناك ؟ « ولم يرد الأب كان مطرقا يفكر . فقد كان هو
هكذا .. يطلب ما يريد بصخب شديد ، ويفعل كل شئ فى النور حتى
علاقات الحب . ومن خلال أهدا به نظر إلى زوجته ووجهها الذى كأنما
انسكب عليه ضوء القمر وتذكر القيل والقال والإهانات والإشاعات
التي لقيتها قصة غرامه بها قبل الزواج وذلك أنه كان مثل فتحة ..
هكذا .. لا ينشئ لنفسه طريقا تحت الأرض بل كل طريقه مكشوفة .
وقامت الأم فى يأس . وتابعها الأب بنظراته وهى تتأود بعود
كأنه لم ينجب أطفالا . ثم غاب عنها بالتفكير .

« لكن لماذا يحب أحمد ؟ » إنه – هو الأب – لوعاد غلاما مرة
أخرى لتمنى أن يكون مثله . لا يطلب ولا يهدد بالسرقة . يرضى بالقليل



ليس من المبالغة أن نقول أن صخبة
يقتل السكون فى الصحراء

وكأنما مسراته وأحزانه تنبع من داخله وحده .. ويعيش بينهم كالغريب . مستح دائما . أما أخوه فكل سنة يزيدها عمره تمنحه جرأة على كل أفراد مجتمعه وهو يخشى عليه باطراد الأيام أن يكون وقحا أو كثير الخصوم » . وتنهد الأب وأفاق ، وفجأة ألقى نفسه ينادى على « أحمد » لكن صوت زوجته أتاه من الداخل وانيا عاتبا يذكره بأنه استأذن وخرج ليقضى الليلة مع أولاد خالته فى المنيل وأنه ربما تأخر عندهم وهذا لا يضر فالمشوار قريب .



كانت الأنوار مطفأة فى السينما حينما دخل الزوج ومعه زوجته . بعسر شديد وصلا إلى المقعدين الخاليين المتجاورين فى هذا السينما الصيفى لأن الليلة آخر الأسبوع .

وبعد أن مضت تلك الفترة التى تنقضى عادة فى تطلع الجالس حوله كأنما ليحدد مكانه من الشاشة والناس بدأ الزوجان فى الاستقرار وتتبع الحوادث . وكان الفيلم يحمل مأساة حب ربما بكى لها القساة لا العاطفيون لذلك فإن بعض المشاهد كانت مدعاة لمجرد الترفيه حتى ارتفعت بالضحك أصوات النظارة فى أرجاء المكان كله .

وبعد اختفاء عاصفة الضحك حول كل مضحك فى كل مرة كانت هناك ضحكة متخللة ترفرف وحدها فى جو المكان كأن صاحبها دفع بها متأخرا فبقيت وحدها بعد زوال الضحكات .

ولأمر ما شغلت هذه الضحكة الصفوف القريبة من صاحبها

فأخذوا يبحثون عن مصدرها . وأحس الأب والأم أن بهما شوقا شديدا .
لاكتشاف مصدرها لكنهما مالبثا أن نسيا الموضوع فى غمار حوادث
الرواية .

وعندما أضيئت الأنوار رأى الأبوان ابنهما « أحمد » ينهض
بقامته النحيلة خارجا من بين الصفوف لأنه اكتفى بهذه الرواية التى لم
يكن رآها من قبل وكان يبدو عليه وهو خارج هدوء من يغادر باب
المدرسة .

وتقارب رأسا الزوجين وأخذا يهمسان :

— كل هذا ولا تحسين بابنك !؟

— لو لم يكن الامتحان قريبا !؟

— لكن .. من أين أتى بالنقود !؟

— يا ترى هل هذه المرة الأولى !؟

— بدأت أغير نظرتى نحو الوجوه التى تبدو عليها الطيبة !

عندئذ لكززة الزوجة بذراعها لكزة ربما كانت شديدة وقالت

هامسة :

— لا .. حاسب !

وأطفئت الأنوار ... وبدأت قصة جديدة !



وكان المسكن هادئا تماما عند عودة الزوجين إلى البيت . والشهر
شهر مايو والطلبة على أبواب الامتحانات ولعل هذا أهم سبب جعل

الأبوين لا يصحبان أحدا معهما إلى السهرة .

لكن حجرة الآخرين بدت مشعلة النور . من خلال الشراع البللورية كان النور يتألق . وفتح الأب الباب برفق فلم يتحرك أحد من مكانه . لأن « فتحي » كان مستغرقا فى النوم فى فراشه وقد غطى وجهه بغطاء خفيف ليحجز بين بصره والنور لينام ، أما « أحمد » فقد كان جالسا إلى المكتب واضعا رأسه على كتاب مفتوح وقد غرق فى النوم . وتبادل الأبوان نظرة قالوا فيها كل شيء عن الغموض الرديء والوضوح الطيب .. عن النور والظلام .

ووقفت الأم وسط الحجرة واتجه الأب إلى صوان الملابس الخاص بالأخوين وفتش جيب كل منهما . لم يجد فى جيب فتحي إلا قرشا ونصف قرش وبقايا من الفول السودانى المقشور وأقراص النعناع . أما جيب « أحمد » الخفى فى بنطلونه .. فقد وجد فيه ورقة « سلوفان » مربعة صغيرة طوى بعضها على بعض وفى أعماقها خمسون قرشا . ورقة واحدة .. جديدة فريدة أول طبعة من عملة الجمهورية ..

وأخذها الأب وخرج . وترك الأم توقظ النائم على المكتب وتعيد نظام الحجرة إلى ماكان عليه .. ثم هجعوا حتى الصباح !

وفى ساعة مبكرة من الصباح ارتفع صوٹ خلاف وشجار فى حجرة الآخرين فعلم الأب أن ساعة « الصفر » قد حانت وعند ذلك دخل

إليهما فى حجرتهما .

كان الاحتجاج الشديد واضحا على وجه فتحى أما أحمد فقد كانت ملامح المظلوم تكسو وجهه الطيب . وحاول أن يسترد دموعه ويطلق إلى الأرض فى الوقت الذى كان أخوه يدق فيه الأرض بقدميه ويلوح بيديه فى الهواء صاخبا يؤكد بين حين وحين أنه ليس لصا .. وأنه لم يسرق شيئا . وتدخل الأب والأم معا وسألا فتحى عن حقيقة التهمة فقال وقد رفع ذقنه كأنه يبتهل :

— ليتنى أعرفها .. إنه يتهمنى باللصوصية على ريق النوم !

واتجه الأب نحو ابنه .. نحو الوجه الطيب الذى يشبه وجه العاشق تحت ضوء القمر . وسأله فى رفق شديد :

— ما الذى أخذه منك أخوك ؟!

فرد مسالما لينهى الموقف :

— لا تتعب نفسك يا بابا .. لأنه شىء بسيط .

وسكت طويلا وصمم على ألا يرد لكن الأب سأله :

— نقود مثلا ؟!

عندئذ رفع الغلام .. أحمد .. رأسه نحو أبيه وفى عينيه أسى شديد . أسى ومرارة من لا يود بزج أحد من الناس فى موقف حرج . وقال وهو يبلغ ريقه :

— ياريت يا بابا .. لقد سرق كتابين من كتبتى كانا هنا ليلة أمس ..

هتف الأب مستغريا وبسرعة من ينقض على صيد ليقتنصه :

- كتابين .. وكم ثمنهما .. المهم أن أعرف ثمنهما يا أحمد .

فرد بهدوء شديد :

- خمسون قرشاً يا بابا .. خمسون قرشاً .

ثم انخرط في البكاء في الوقت الذي أخذ أخوه يشد فيه شعر رأسه في صمت وغيظ . وأمره أبوه بالخروج ، وعندما خرج سأل الأب أحمد :

- والخمسون قرشاً يا حبيبى .. مانوعها ؟ جمهورية جديدة ؟ .. أول

عملة صدرت في الجمهورية .. تمام يا أحمد ؟

وضغط على كتفه ضغطة شديدة فكف عن البكاء وبدأ على عينيهِ السوداوين اضطراب غامض . لكن الأب لم يمهله وصرخ فيه :

- أين كنت ليلة أمس ؟

فلم يرد .

- في السينما ؟ لقد رأيتك .

فأوماً بالإيجاب .

فأمسك الأب بكتفه الأخرى بيده الأخرى وقال مهدداً :

- بقى أن أعرف مصدر النقود .. هل سرقت أمك ؟

- لا ..

- تلميذاً في المدرسة ؟

- لا .. لن أعود إليها يا بابا .. لن أعود !! بشرفى لن أعود .

عندما كان يكثُر الزحام عند تاجر البقالة المسن الوحيد فى الدكان
كان أحمد يأخذ المشتريات ثم يطالبه بالباقي وغالبا ما يكون بضعة
قروش . وإذا نظر إليه الرجل بتشكك رأى وجهه الطيب ودمعة
بانتظار أن تسيل من أى تهمة ..

واستحلى التجربة بعد لمجاحها ثم تحولت التجربة إلى مغامرة ثم
إلى عادة ..

وهكذا اعترف الغلام .. كان مطرقا وأمه مطرقة إلى جواره وعلى
ملامحها طيبة وأسى مشترك ولم يكن الأب مهموما لأن غلاما فى هذه
السن ارتكب خطأ من الممكن أن يعالج . لكن مركز همومه كان فى
التفكير : « كيف تستطيع الوجوه التى تغلفها الطيبة أن تخفى وراءها
أسراراً ليست طيبة ؟! » .

وعندما وجه هذا السؤال إلى زوجته - مداعبا - رأى دمعتين فى
عينيهما السوداوين قبل أن تنصرف .

جاء الربيع

لم تكن الشمس قد أشرقت على الريف فى ذلك اليوم . كان الوقت باكرا والشهر (أبريل) ونداوة النسيم تعبر من خلال النوافذ المقفلة عطرا بكرا صنعته يد الله .

ولم يكن فى الحجرة الكبيرة أحد سواه .. والباب مقفل عليه من الخارج وميعاد الفطور لم يحن بعد . لكنه كان فى حاجة قصوى إلى أن يتحرك . فقد أحس أن هذا الفراش الذى لزمه شهرا هنا ، ومنذ خمسة شهور فى المدينة . أحس أنه منجد بالشوك . وأن هذه الحجرة ذات الطراز الريفى العريق ضيقة .. جدا .. مع أنها ذات جدران مرتفعة ومساحة لاتقل عن ثلاثين مترا ..

وجلس فى فراشه وحمل ذقنه على كفيه ثم أخذ يفكر.. إنه كان حزينا قبل أن يأتى إلى الريف . كان يائسا من دنياه .. يرقب صباح كل يوم من نافذته وهو جالس على كرسيه ذى العجلات فلا يرى ابتسامة البشر على وجه أحد ويخيل إليه أن الناس الذين يتسابقون أمام عينيه إلى أماكن الرزق لا يفهمون من حقيقة الدنيا شيئا . أما المساء فقد كان ينزل على المدينة فى نظره كما ينزل الكابوس .. بليل لا نور فيه ولا نوم ولا حلم سعيد .

لكنه فى هذا الصباح يحس أن شيئا فى داخله يبتسم وإن كانت

ابتسامته لاتخلو من ذكريات غير حلوة . وهاهى ذى الخادمة الكبيرة التى تقوم على شئونه لم تعد حتى الساعة من عند بنتها التى وضعت غلاما كان أعز بشرى تلتقتها طول عمرها لأنها لم تنجب إلا بنات . وهى لذلك تبدو أنها مشغولة وأنها تحمل طفل بنتها فى اللفائف وتتفرس ملامحه ثم تكبره عشرين مرة على الأقل بعين خيالها المشتاق ترى على شفته شاربا عظيم الشهامة . وتقبله .. وتضحك .

.. كانت هذه أفكاره وهو جالس فى الفراش . ورفع ذقنه من على كفيه وقلب بصره فى المكان وأخذ يعد النوافذ والكراسى بطريقة لاتعنى شيئا ، ثم تذكر وحدته وأخذ يفحص تفاصيلها .. فنظر إلى السرير المطوى فى الركن البعيد من الحجرة وتذكر الأيام الى كان فيها منصوبا .. منذ عهد غير بعيد .. منذ سنوات خمس .. كانت زوجته ترقد هناك ويأتيه حديثها من بعيد ..

ثم .. ماتت ، ودفنت فى القاهرة وكان هو يحترف تجارة الأقمشة فاستطاع أيام الحرب الماضية أن يبنى أشياء كثيرة . وكانت هذه المزرعة الصغيرة من الأشياء التى اقتناها ..

ثم سكنت أفكاره .. قطعها عليه وقع خطوات على السلم ظنها خطوات خادمتة الكبيرة . إنها زوجة أحد الفلاحين كانت تطارد دجاجة فرت من حظيرتها وأخطأت طريقها إلى السلم . وأخذ ينصت إلى المعركة حتى اختفت آخر معالمها . ثم عاد إلى ماكان فيه يقلب بصره فى الحجرة الواسعة ويحصى الأشياء حوله بطريقة لاتعنى شيئا . حتى

وقع بصره على السرير المطوى فتذكر زوجته وأولاده .

تذكر ابنه الأكبر الذى يشغل الآن وظيفة فى إحدى المحافظات
والذى ظل يغريه طوال سنوات دراسته بأن يكون بديله فى التجارة لكنه
قال « إننى يا أبى أفعل ما أصلح له ، ولا أفعل ما تحبه أنت ولا
ما يحبه الناس » .

وابنه الأوسط الذى يشتغل مهندسا بحريا فى إحدى المراكب
التجارية يقطع الدنيا طولا وعرضا ويحمل إليه كلما عاد هدية طريفة
أوحادثة عجيبة وقعت له أو لأحد الناس .

ثم .. ابنه الأصغر الطالب بكلية الشرطة ... البعيد القريب والذى
لن يكون إلى جواره حتى بعد أن يتم دراسته لأنه سيكون فى خدمة
الأمن فى إقليم ما فى أرض بلده ..

وعادت خطوات أخرى وضجة تسمع على السلم . و الشمس لم
تشرق بعد . ونداوة النسيم تملأ أرجاء المكان عطرا بكرا كأنما رشته
(بخاخة) . ثم تبين له أن دجاجة أخرى تجرى على السلم وأن أحدا
يطاردها . ونقلته أصوات المعركة الناشبة بين المرأة والدجاجة إلى جو
من الأمانى والأحلام فحسد كل شيء يمشى على رجلين حتى ولو كان
دجاجة .. مصيرها هكذا .. تحبس فى حظيرة حتى يدركها السكين ..
نعم .. لأنه مشلول منذ ستة شهور .. إحدى ساقيه لاتقوى على حمله
وهو بطبيعة إحساسه مثقل باليأس . يحس بالخلاء والوحشة منذ وقع له
هذا الحادث . ولم يصدق لحظة واحدة ما أكدته الوقائع وأقوال الأطباء

من أن المرضى بمثل مرضه يبرءون . وكان يضيق بالطبيب حين يقول له
« ساعد نفسك » حتى صرخ فى وجهه ذات ليلة قائلا له : « إذن فما
مهمة أطواق النجاة ؟ »

ونظر إلى الكرسي ذى العجلات الواقف إلى جوار الفراش نظرة
صديق لصديق .. أحس فى هذه اللحظة أنه أنفع شيء فى الدنيا فهل
يستطيع أحد أبنائه الآن أن يحمله إلى هذا الركن القصى من حجرة
النوم ؟

وتنهّد .. وجاءه عقب تنهده صوت عصفير تشقشق فشرع على
الرغم من أى شيء كان برعما أخضر يتفتح فى صدره فتبسم .
ورأى أول شعاع من أشعة شمس اليوم يدخل من خلال النوافذ
والخادمة الكبيرة لم تعد بعد . وكان محتاجا إليها . ومن الغريب أنه لم
يشعر بحرق ولا غضب بل حنا عليها . كان يتصورها جالسة فى القاعة
الصغيرة على الفراش الأرضى بجوار بنتها وهى تقبل ابنها الرضيع فهل
خطر على بال هذه الخادمة أن طفلا كبيرا جدا ينتظرها على بعد ثلاثة
كيلو مترات ؟ و لم يتألم ولم يشعر بحرق بل نظر إلى الكرسي ذى
العجلات وتقلقل فى مكانه معتمدا على كوعه ومدليا رجله السليمة
محاولا أن ينزل إلى الكرسي وماكاد يفعل حتى فوجئ بإحدى عجلاته
تسقط على الأرض .

فتعامل فى هدوء راجعا إلى الفراش . وجلس وأخذ ينظر إلى
أسفل إلى حيث يربض الكرسي ، وحمد الله على أنه لم يستقر عليه

بكل ثقله إذن لأصابه مكروه .

لكنه عاد من جديد يستمع إلى يقظة الدنيا حوله .. كان هناك أصوات تغنى وسط الحقول يحمل الصباح صداها طربا عذبا كأنما غسله الندى . وناس يصيحون .. ينادى بعضهم على بعض كى يسرعوا إلى العمل . وطيور تغنى .. وحيوانات تتناغى . وسحرته الأصوات . وأحس بقلق يسرى فى أعضائه يشبه إلى حد ماقلق الساقين حين تعزف الموسيقى . فدللى رجليه من الفراش ووضعهما على الأرض بشجاعة لم تسبق له من قبل على الرغم من إغراء الطبيب . وحانت منه التفاتة إلى الكرسي الذى سقطت إحدى عجلاته فرأى نفسه أقوى منه . وأحسبت إحدى قدميه الأرض ولم تحس بها القدم الأخرى لكنه تحامل على الاثنين معا ودارمع الفراش ، وفرض بينه وبين نفسه أنه جريح وحيد حتمت عليه الظروف أن يزحف حتى يصل إلى أقرب إنسان .

وجد نفسه جنب النافذة فظل واقفا وعالجها حتى انفتحت وفجأة بدت له الحقول والمزارع والأفق فى بهاء لم تعهده عيناه . وتبسم . واستنشق هواء كأنه لم يذقه من قبل مثلما يشرب الظمآن من يد يحب صاحبها ونسى نفسه فى وقفته لأنه أخذ يتأمل كل شيء أمامه .

كان هناك شجرة من اللبخ تقوم على الطريق العام كان يعرفها وهو صغير وكم صاد العصافير من بين فروعها والسملك من التربة القريبة منها وكان يشعر أن رابطة ماتربط بينهما . ومنذ خمس سنين جاء



بدت الحقول والمزارع والأفق فى بهاء لم تعهده عيناه

خيوط النور

الربيع واخضرت كل الأشجار على الطريق وفى الحدائق وحول الدور وفى المزارع . لكن هذه الشجرة لم تخضر كلها . كان نصفها أخضر ونصفها يابسا . وجاء أحد الفلاحين فى ذلك الحين ووقف أمامه وحياء ثم وضع فأسه على الأرض واتكأ بيده على يد الفأس وسأله : لماذا لاتقطع هذه الشجرة؟ فأجابه صاحب الأرض : ولماذا نقطعها ؟ دعها .. فإننى أحبها .. فابتسم الفلاح وحمل الفأس ومشى ودعا للشجرة أن تعود إليها الخضرة . وهاهو ذا اليوم ينظر نحوها .. كل الأشجار قد اخضرت .. وقوة الإنبات فى الأرض ملأت القرية بالحياة .. وشجرة المشمش فى الحديقة القريبة تكسوها أزهار بيضاء مثل أجنحة الفراش .. نعم .. حركة بعث قد لمست كل حى ..

وتذكر فى وقفته ناسا كثيرين .. ابنه الكبير الذى تلقى منه رسالة تعبر عن شوقه وتعد بأنه سيكون عنده قريبا .. وابن الأوسط .. وابنته ومصمص بشفتيه .. إنه أحب أولاده إليه .. أه لو كان يراه .. ورأى عصفورا ينقر عصفورا فأحس هو كأنه يقبل ابنه البعيد . إنه الآن فى البحر . وربما كان على أرض أحد الموانئ يفتش عن شىء طريف يحمله هدية لأبيه .

وعادت عيناه تفتشان عن شجرة اللبخ . ياإلهى .. أليست هى القائمة عند هذا المرتفع . إن الساقية والترعة ومفترق الطرق وشجرة اللبخ أشياء ومعالم لايمكن أن ينساها . لكن .. لماذا هى خضراء كلها .. كيف عادت إليها الحياة بأكملها ؟

وفرك عينيه وعاد يحملق . إنه ليس مخدوعا .. إنها حقيقة .
 وشعر بسرور كأنما عاد إليه صديق كان مفقودا فى معركة . ورأى
 الفلاح الذى أئذر يوما بقطع هذه الشجرة يعبر على الطريق من بعيد
 يمشى بلا فأس وهو يترنم بأغنية .

وسأل نفسه : هل من الممكن أن تفعل الحياة ببعض الناس ماتفعله
 ببعض الأشجار ؟ هل من الممكن أن يكون لى نفس المصير الطيب الذى
 لقيته هذه الشجرة ؟ فأتته الإجابة متمثلة فى صوت الطبيب الذى طالما
 همس له : « ممكن .. لكن يجب عليك أن تساعد نفسك » ومالبث
 سمعه أن امتلأ بصوت يهتف بتحيةة الصباح وكان صوت الخادمة
 الكبيرة . لم يشعر بها حين دخلت عليه لأنه كان غارقا من تأملاته
 وطلب منها كرسيًا وجلس إلى النافذة ولم يدر لماذا كان يحس أنه ولد
 من جديد مع الطفل .. ابن بنتها ، ومع الطبيعة .. ومع الخضرة البهية
 التى غطت شجرة اللبخ بعد غيبة طويلة ..

كانت هذه اللحظة مولد أمل كبير فى قلبه فتناول فطورا شهيا
 وقرأ الصحف ونادى على الفلاحين فناقشهم فى كثير من مشاكلهم
 وكأنه لم يرغب عن أرضه يوما واحدا .
 ولم يطلب من أحد أن يصلح له عجلة الكرسي . كان مصمما
 على أن يسير واثقا أنه سينجح ..

وفى الصباح الثانى تكرر الموقف ، وفى الصباح الثالث حدث
 نفس الشيء وفى الصباح الرابع بينما كان واقفا فى الشباك ينقل بصره

من الشجرة إلى الطريق لاح له شبح شاب يعبر الساحة أمام البيت بخفة وعجلة وهو يحمل له لفافة صغيرة .. وفحصه بقلق .. إنه يشبه ابنه البحار.. لعله هو .. إن له نفس القامة والمشية .. ها هو ذا يقترب .
وتأوه فى شوق : آه .. إنه ابنى .. وتأوه مرة أخرى وكاد يسقط على الأرض لكنه تماسك .. إنه على وشك أن يطير بجناحين .. إنه الآن عند باب الشقة وقد قطع طول الحجرة إلى الباب دون أن يشعر .. مشى على رجليه ..

وتساقطت من عينيه الدموع وهو يحتضن ابنه الذى عاد . وظل طول شهر كامل هناك فى الريف يمنح السعادة لسكان المكان الذى منحه الحياة من جديد ، ويرقب شجرة اللبخ من النافذة مع كل صباح ببشاشة من يحدث صديقا .

شموع

كان تاريخ هذا اليوم منقوشا على قلبه .. يتذكره تلقائيا كل عام
ويعرفه بين الأيام بأمارات تحس ولا توصف .

هذا اليوم من شهر فبراير .. له رائحة .. كان يستيقظ من نومه -
ريحا من غير انتباه - فيجد الغرفة قد امتلأت برائحة يشمها القلب .
رائحة لامرأة يفوح من ملابسها عبير صابون معطر .. ملابس غير
مكوية . فيها كسرات الغسيل . طويلة فضفاضة تخفى تقاسيم بدنها
.. وفي عينيها نظرة كسيرة كأنها تواجه الشمس .

كم كان يحبها ! خصوصا عندما تضحك . تظهر من فمها أسنان
صافية فى بياض اللؤلؤ . والدفء من ضحكها يغمر المكان ، كشمس
(أبريل) فى أول النهار .

كان يسأل نفسه : « لماذا لا تختفى ملامح هذا اليوم كلما ازداد
ابتعادا فى الزمن ؟! لكأنما أصبح هو نفسه .. الزمن بأجمعه .. تحول
(الجزء) إلى (كل) شامل . يوم واحد يتحول إلى كل هذا ؟! »
وغير العام وينسى اليوم والصورة ثم لا يلبث أن تعود على فترات
بالابتسام المضيئة التى تدفىء الدنيا والنظرة الكسيرة التى كأنها
تواجه الشمس والبياض الصافى لأسنان تشبه اللؤلؤ .

استيقظ اليوم مبكرا من النوم . واليوم يوم جمعة .. يوم عطلة
من العمل .

كان نائما فى حجرة صغيرة فى شقته ليست هى الحجرة التى ينام
فيها عادة . وكانت السماء تمطر طول ليلة أمس . وكان يستمع إلى
نقرات المطر على خشب النوافذ وهوى حالة ليس نوما ولا يقظة . كانت
عيناه متمردين على النوم .. وربما كان لا يريد أن ينام . وخالطت سواد
ليله أحلام بيضاء فى صفاء أجنحة الملائكة ..

واستيقظ مبكرا . واليوم يوم عطلة . وعندما فتح النافذة رأى
السماء كأنها مغسولة . وعلى أشجار الشارع خضرة زاهية تنبض
بالحياة .

ولم يفتح الزجاج ليتنفس هواء الصباح فقد خيل إليه أن النسيم نفذ
إلى صدره من خلال الزجاج ..

نعم .. ثم غادر النافذة . كانت عيناه مليئتين بالنور حين توقف فى
وسط الحجرة . على فمه ابتسامة والقلب ملء بالبهجة . وفى الجو
عطر كأن الربيع فى شهر فبراير .

ثم تحرك خارجا من الغرفة . وقطع الصالة فى طريقه إلى حجرة
أخرى . يمشى على حذر كأنه يخاف أن يزعج أحدا . ولما وصل إلى
الباب وقف عنده يستمع .. ليس هناك نغمة تصدر من الداخل . وكل
شئ ساكن كأننا فى منتصف الليل .

ويدا له أن يرجع لكن قلبه كان معلقا بمن هناك ، فأمسك أكرة

الباب وأدارها برفق وعض على شفتيه كأنما ليمنع الباب من الصرير،
فرأى على الفراش المزدوج زوجته التى رقدت منهوكة وقد أرخت إلى
جبينها ذراعاً كأنها خالية من العظم ووضعت على وجهها ذراعها
الأخرى .

ولذ له أن يراقب نومها فتقدم إليها ووقف يحملق فى الشفتين
اللتين أمتعتاه بالسمر طوال عامين .. منذ أن تزوجا . وقد كساهما
الصمت والشحوب نوعاً من القدسية .

وإلى جوارها فى لفائف .. شىء صغير . طفلة فى مستهل الحياة
ذات وجه خلو من التعبير وعينين مثل عيون القطط . طبقت كفيها كأنما
تمسك بطرف الخيط الذى غزلته حواء بخديعة آدم ..

كان كل شىء فى الحجرة بالنسبة إليه مكملًا لهذا المنظر .. بل
الدنيا كلها إطار له . عيناه تقعان الآن على أهم شىء فى الوجود .
وتبسم وهو يسأل نفسه .

ما الذى يدور الآن فى رأس كل منهما من أحلام ؟
وحركت الطفلة شفتيها فى حركة غريزية كأنها تمتص شيئاً وصدرت
من الأم تنهيدة عميقة كأنها انتهت من حلم ورفعت ذراعها من فوق
رأسها وفتحت عينيها ..

كان هو هناك لا يزال واقفاً يبتسم وبدأت ابتسامة الزوجة تشع
حتى إذا بلغت غايتها ردت عليه التحية :
- صباح الخير . هل نمت مرتاحاً ؟

فجلس على حافة الفراش يعدل من ذوائب شعرها الذى بعثره النوم
ويثرثر بحديث لا يخلو من التسلية . ثم قام إلى نافذة ففتحها بحرص
فتدفق النور من الشباك وبدت السماء ندية كأنها مغسولة ووقف
عصفور على حافة النافذة ينقر الزجاج فابتسمت الزوجة وسألته :

– هل نحن فى الربيع ؟

فقال وعيناه تحملان معنى عظيما :

– نعم .. ألا تسمين رائحة الأزهار ؟

ولما أشار إلى الطفلة وهوينطق بهذه العبارة مدت إليه كفها الرخصة
فأبقاها بين كفيه .

وعند العصر كان البيت كله فى ضجيج ..

كان هناك لمة من الأهل والأقارب تجمعوا فى الصلاة . وكان
لفط الأطفال يغلب على كل شىء . ولم يكن هناك مجال للاحتجاج من
الكبار فقد كان الفرح من أجل الطفولة ..
أحس الكبار كأنهم مدعوون وأن مكانهم ليس فوق خشبة المسرح
وإن كانوا هم الذين رتبوا كل شىء .

وتحت أشرطة الأوراق الملونة وقف أطفال من كل سن يحملون
الشموع ويرددون الغناء والضحكات بطريقة غير منتظمة . وعندما
انطفأت الشمعة فى يد طفلة ووقف طفل يشعلها لها من شمعته وعيناه
تحمقان فى خدها المتورد وقد التصق بها فى حب – ضج الكبار

بالضحك .

والى جانب الأم التى تحتفل « بسبوع » هذه الطفلة الأولى فى فرحة وأمل كانت هناك أم أنهكتها الولادة تنظر إلى كل ماحولها باستخفاف وتسال بين لحظة أخرى عن ساعة العشاء . وامرأة أخرى لم تنجب .. كانت تنظر إلى كل ماحولها نظرة مأخوذة تستردها بابتسامة وكأنها فى عالم سحرى .

وخف الضجيج شيئا ما حين وقف خال الطفلة وهو شاب فى السابعة عشرة وأعلن أنه سيعزف لنا تحية القدوم على الكمنجة التى تعلم العزف عليها حديثا .

وتعلقت أنظارالحاضرين بقامته النحيفة ويده البيضاء وهو واقف مائل الرأس مغمض العينين يحرك القوس على الأوتار بطريقة لاتخلو من مهارة .

أما الأب فلم يدر لماذا أحس بانقباض طارىء .. شعر بالفرحة التى ملأت قلبه تغيبض شيئا فشيئا كما يغيبض الماء حتى أوشكت أن تنتهى ..

وأغمض عينيه وهو جالس بعد أن تأمل طويلا فى الشاب المغمض العينين الذى يعزف وهو واقف وأخذ يبحث عن السبب فى الوقت الذى ارتفع فيه ضجيج الأطفال فى ركن داخلى من المسكن . فخيّل إليه أن هذا اللحن هو سبب انقباضه فقد رجع به إلى ذكرى عشر سنوات أيام شاع وانتشر بعد تأليفه مباشرة ولم يكن مصاحبا



أما الأب فلم يدرك لماذا أحس بانتقباض طاريء.

بغناء ..

وبدأت الخواطر تتوارد ..

آه .. كان شابا أيضا .. آه .. حديث السن جدا ، نعم . ابن
سبعة عشر عاما .. آه .. وهز رأسه وهو مغمض العينين . كان فى مثل
هذا العازف تماما . وفى طراوة عوده . وربما فى سذاجته النسبية .
وفتح عينيه فرأى الجالسين يحملقون فى الشاب ويرقبون فيه
ملامح عازف ناجح . وأم البنين منسجمة فى ارتياح لا بأس به كأنما
نسيت متاعب الدنيا . أما الباقون فقد ركبوا على شفاههم بسمات
مختلفة المقاس .

وعاد فأغمض عينيه كأنما كان فى اللحن مخدر ..

وعاد فتذكر:

— « آه .. كنت ابن سبعة عشر ريعا . واللييلة ممطرة لكن الجو
ليس قارس البرد .. ما أجمل هذه النغمة .. إن لهذا الولد مستقبلا ..
نعم .. وخرجت من مسكنى المفرد البارد الرطب . وقصدت إلي بيتها
.. ما أجمل هذه النغمة . إن لهذا الولد مستقبلا بلاشك .. نعم ..
وتناولت معها عشاء . كل شيء كان جميلا دافئا لكن لم يكن هادئا
.. كان الاضطراب يملؤنا .. »

وهز رأسه وابتسم وهو مغمض العينين واستطردت أفكاره :

— « كان اسمها علي اسم زوجتى .. آه لو تعلم ما أجمل هذه
النغمة .. إن لهذا الولد مستقبلا . نعم .. ودخلنا معا أنا وهى عالما

ليس له حدود . كنا أحيانا نصرخ من فرط السعادة ثم نضع أكفنا على أفواهنا حتى لا يتسرب إلى الخارج صوت .. آه .. ما أجمل هذه النغمة إن اللحن على وشك أن ينتهى .

وودعتها وعدت إلى بيتى فإذا ببرقية بانتظارى فى الباب مع ساكنة عجوز فى السلامك .. قدمتها لى بعد مقدمة .. آه .. انتهى اللحن .. إن لهذا الولد مستقبلا ..

وصفق الحاضرون .. وفتح كل مغمض عينيه ونظر الحاضرون بعضهم إلى بعض . والأطفال فى الركن الداخلى يغنون . وهويتذكر نص البرقية .. كم كانت مفاجأة غير مرتقبة ليلتئذ . بات وحده بقية الليل فى الفراش البارد والحجرة الوحيدة . وكان جو فبراير عاصفا وفى السماء سحب ينذر بالمطر ..



وانصرف المدعوون وسكن البيت ..

لم يعد فيه إلا ثلاثة . طفلة نائمة وأم مستلقية على ظهرها فى الفراش تنهب الراحة .. والزوج ..

كان جالسا على حافة الفراش وأمام عينيه صورة لامرأة يفوح من ملابسها عبير صابون معطر . والملابس غير مكوية وفى عينيها نظرة كسيرة كأنها تواجه الشمس .

وكان الصمت يظلل على الحجرة . وعدة شموع ترسل نورها على مقربة من السرير . وخيل إليه أنها تهمس وتسال عن تاريخ هذا اليوم .

غير أن السؤال كان صادرا من زوجته :

- اليوم ٢٣ فبراير .. تمام ١٢ .

فهز رأسه موافقا :

- تمام .

- ظننت نفسى مخطئة .

- أبدا .

- مالك ؟ كأنك .. لأريد أن أقول مهموما .

- نعم أنا مهموم .

فهمتت مستغربة :

- فى ليلة « سبوع » طفلتنا الأولى ؟

- هناك شىء مهم نسيته . كان لابد أن أشعل عشر شمعات فوق مقبرة أمى التى ماتت منذ عشرين سنوات فى هذا التاريخ وعلمت خبر وفاتها ببرقية كنت كل سنة أزيد شمعة على قبرها . وأسقى أشجار الصبار . ولكن .. ها أنت قد رأيت . لم يكن يشغلنى شىء إلا اللحن والشمع والغناء .. ثم تذكرت فجأة . لكن .. آه .. لست مهموما بالقدر الذى تظنين .. لأننى فى الواقع أراى خاضعا للمنطق .. فقد أنستنى قوة الحياة شموعا كان يجب أن أنيرها هناك .

وتخيلت أمام عينيه صورة الضحكة المشرقة . وملأت أنفه رائحة الصابون المعطر عندما ذكر أمه .

وسكتت الزوجة . ثم قالت وهى تمرر يدها على شعره :

— ألا يمكن أن تنيرها هنا ؟! مكانهم فى القلوب يا حبيبى .

فقال وهو ينظر إلى السقف :

— ممكن . نعم..

ومنذ هذه الليلة صار عدد الشموع يزيد كل سنة شمعة . على

« تورتة » عيد ميلاد الطفلة .

الرحلة المقدسة

خبر ط النود

كان كل شيء هادئا فى الليل الساكن .. فى جو نوفمبر الذى
يميل إلى البرودة وفى الظلام ذرات من الضباب يبدو واضحا حتى ولو
أشعلنا عود ثقاب ، وكل شيء معد تماما . رسمت الخطة بإحكام شديد
بحيث لا يكون هناك ضحايا .

وكانت الصحراء مسرح عملهم حيث يقع معسكر الجنود الإنجليز
ومخزن للذخيرة . ولعل المعسكر كان صغيرا لكن المهمة الأولى لهؤلاء
الشبان كانت تفجير المخزن . ولم يكن عمل الفدائيين قد نشط بعد فى
هذه الفترة من الزمن بل كانت بوادر حركة التحرير فى أول مولدها .

كان كل شيء معدا تماما . فالليلة ماثلة إلى البرودة والسماء بلا
قمر ولعلها بلا نجوم ، وعلى مقربة من الطريق غير المرصوف المؤدى إلى
المعسكر جهز لهم بعض الفلاحين من سكان المنطقة حفرة فى الصحراء
عميقة إلى حد يصون اللاجئ إليها ثم غطوها بفروع الشجر على مقربة
من شجرة (طرفاء) يمكن الاهتداء إليها فى الليل .

وكان موقع المعسكر محصنا طبيعيا . فالطريق المار به طريق
فرعى ضيق . يؤلف شطا لترعة عميقة تمر بأرض متاخمة للصحراء .
فأصبح الطريق والترعة والليل والصحراء والأبلاك والحرس - أصبح
هذا كله سورا طبيعيا يمنع نوعا من الطمأنينة النسبية لمن اغتصب حق

غيره .

وكان كل شىء معدا تماما ... حين خرج الشبان الخمسة من إحدى العزب الصغيرة وقد حملوا كل المطلوب ، واتجه ثلاثة منهم إلى الطرف الشرقى من المعسكر حيث تتراعى الصحراء بمتاهاتها فى جلال تحت جناح الليل واتجه الاثنان الباقيان نحو الغرب على مقربة من الطريق والترعة ... مر الخمسة صامتين كأنهم يخافون حتى من الليل أن يعرف سرهم . وعندما وصلوا إلى النقطة التى يجب أن يفترقوا شد بعضهم على يد بعض . وكانت أكفهم تتخبط فى الظلام متمسكة طريقها للتصافح لكن ضغطة السلام كان لها لهفة القبلية ... كان كل منهم يقول فى نفسه : « ترى هل سنلتقى !؟ »

واتجه ثلاثة منهم إلى الطرف الشرقى من المعسكر حيث تتراعى الصحراء بمتاهاتها .. واتجه الاثنان الباقيان نحو الغرب على مقربة من الطرق والترعة . وبعد مضى ساعة من الزمن حان الوقت الموعود لتنفيذ الخطة .

وكانت الخطة مؤلفة من قسمين كل واحد منهما يخدم الآخر ، فعندما يشعلون النار فى فتيل إحدى القنابل التى صنعوها بأيدهم وتتفجر ناحية الغرب سيسمعون صوتها فى المعسكر ، ويرون وهجها وستمتد النار إلى شريط من القش السريع الالتهاب ، ومن خلال هذا اللهب ستدوى عشرات من طلقات الرصاص وضعت بنظام فى شريط غمس بالبززين ، عند ذلك سيظن جنود المعسكر أن معركة سيافرة ستبدأ

بين الوطنيين والمحتلين وستتجه كل الأفكار إلى ناحية الغرب فى الوقت الذى يزحف فيه الثلاثة ليلقوا المتفجرات على مخزن الذخيرة ، وقبل أن تتجه الأفكار ثانيا إلى ناحية الشرق يكون الثلاثة قد قطعوا شوطا معقولا فى طريقهم إلى الهرب . أما الاثنان فعليهما أن ينزلا إلى الماء فورا ليعبرا إلى الشاطئ الآخر وكل شئ معد من أول اليوم حيث شد الفلاحون لهم حبلا بين الشاطئين عليهما أن يعرفا طريقهما إليه بشجرة الصفصاف الصغيرة أن يجعلاه معبرا يساعدهما على السباحة فى هدوء ويكون ضمانا لهما من أن يتعرضا للغرق .

هكذا كانت الخطة معدة . وكانوا قد تناولوا عشاءهم عند فلاح آواهم فى العزبة التى خرجوا منها . وكان العشاء فطيرا وعسلا ، ودعا لهم الرجل وابتهل إلى الله أن يلقاهم مرة أخرى وابتسم لهم وهو يكتهم دموعه ...

ولم يكن منظره بعد قد فارق مخيلة الشابين بعد ما وصلا إلى الحفرة القريبة من شجرة الطرفاء وهبطا إليهما ، وبعد أن جلسا فى قاعها بانتظار اللحظة الحاسمة أحسا أن الليل أشد سكونا . ولم تلبث الطلقات الطائشة التى تخرج من المعسكرات عادة بالليل أن تناهت إلى سيمعهما فشعرا كأن العدو يدعوهم إلى البدء فى المعركة .

وكان معهما .. فوق .. عند رأس الخندق الصغير كل معدات الحرب ... هذه الحرب الصغيرة التى يشنها خمسة من الشبان فى سبيل تمهيد الطريق لخلق خمسة ملايين من الجنود المدربين يوما ما .



ولم تلبث الطلقات الطائشة التى تخرج من
المعسكرات عادة بالليل أن تناهت إلى سمعهما .

كانت أفكارهما متقاربة ولو أنهما لم يكونا يتكلمان . كل منهما يتصور مدى ماستفعله فى المستقبل معركة عتادها قش وبنزين وقنبلة صغيرة ساذجة الصناعة . وحبل ممدود تحت سطح الماء ليكون سبيلا لنجاة ، وكان أحدهما طالبا وكان الآخر فلاحا ، ولم يكن أحدهما يرى فى الظلام وجه الآخر ولكنه كان يسمع أنفاسه . كانت خلجات قلب كل منهما تصل إلى صاحبه فى الخندق عن طريق التنفس . فأحسا بوحدة المصير، وبروعة القوة غير المرئية ولا المنظورة التى حبست الجن فى القمقم . وتخيل كل منهما أن حواجز الأسلاك والأحجار حول معسكر العدو الرابض فى وطنهما مثل جدار القمقم فى الأسطورة . وأخذا يتخيلان بقية العملية .. ويتساءلان فى لهفة صامتة يزيدها الليل والمخاطر بل وانتظارالموت عمقا وقدسية - يتساءلان : « ترى من سيكون صاحب اليد الطيبة التى ستحمل هذا القمقم بمافيه وترمى به فى البحر على شواطئ مصر ؟ »

وتنهذا فى نفس واحد . كان الموقف قد حولهما إلى رجل بتجسمين . وسارع الفلاح يسأل الطالب : لماذا نحن منتظرون ؟ لماذا لا نبدأ العمل ؟ إن الثلاثة هناك لا بد أنهم قلقوا !! فرد عليه الطالب : هه !! ماذا تقول ؟ .. لست أعرف السبب.. هناك أشياء نفعلها بلا علة معقولة ...

وصمت قليلا . ثم عاد يسأل زميله : هل تريد الآن ؟ فرد عليه : ولماذا لا ؟

ولكن الطالب لم يتحرك .. وكانت رائحة البنزين تملأ الخندق وطعم العسل لا يزال على زاوية فم الطالب حين لعق شفثيه بحركة غير مقصودة . ولم يدر لماذا تفاءل حين أحس طعم العسل على شفثيه !! كانت نفسه الكبيرة فى ساعة هذا الخطر لم تتخذ قرارا بعد . وحمل الليل الأخرس إلى سمعهما طلقات تنز فرفعا رأسهما ينظران إلى السماء . كان هناك نجوم تطل من بين سحب متفرق تغمر كأنها عقارب ساعة تشير إلى مرور الوقت . واسترد الفلاح بصره وقال لصاحبه : بنا .. كفاية .

وهما بأن يتحركا لبدء تنفيذ الخطة لكنهما عادا إلى مكانهما بسرعة فقد تناهى إليهما فى الليل الساكن صوت محرك سيارة « جيب » أتيا من ناحية الجنوب كان يقترب بسرعة عظيمة . وكان مفهوما بما لا يقبل المشك أن ركبها إنجليز . فما من وطنى يعبر هذه المنطقة فى مثل هذا الوقت . وأحس الشابان بالاكتماب . خافا أن يفسد القدر تدبيرهما . ثم .. إن المهمة التى نيطت بهما مهمة جزئية بالنسبة لما سيفعله الثلاثة المنتظرون . فضلا على أن طريق النجاة بالنسبة لهما أكثر ضامانا من الثلاثة الآخرين

وامتلاأ الليل بصوت المحرك وفرش النور جزءا كبيرا من الأرض البور فذكر الطالب أنوار القاهرة التى تركها منذ أسبوع وشوارعها المضيئة هكذا ، ومحركات السيارات ... لكن رائحة البنزين فى الخندق ردتة فورا إلى واقعه ، فتحسس بندقيته ونادى زميله : « هل أنت

مستعد ١٢ « فضحك الطالب : للموت ! فقال زميله بجيم ريفية كانت عذبة الوقع فى هذه اللحظة : « للموت ١٢ هل تريد منى أن أستعد للزواج » .

وفى هذه اللحظة توقف محرك السيارة ، وسمع الشابان فى الخندق صدمة لم تكن منتظرة طار لهما قلبهما . فقد انقلبت السيارة فى حفرة خادعة حفرها على الطريق بعض الفلاحين وغطوها بتراب . ولم يدر الشابان ماذا حدث بالضبط لكنهما كانا على يقين أن الرياح هبت عكس اتجاه السفينة ، وأن متاعب غيرمنتظرة ستقع لهما حالا . وعاد إلى الليل سكونه ، وصمت محرك السيارة ونزل منها جنديان وقد مألها الرعب وصارا يطلقان النار فى كل اتجاه ، وخرجت من المعسكر طلقات نارية جعلت كل شىء يضطرب فترة من الوقت . لكن كل شىء ما لبث أن عاد إلى الهدوء . وجعل الشابان يقدران الوقت : إن الجنديان قد وصلا إلى المعسكر فقد مضت ساعة من الزمن ولو كان فى نية من هناك أن يعود لتفقد المكان لفعلوا .

وقال الطالب فى نفسه : « إن الأرض تقاتل مع أصحابها كما يقولون بدليل أنهم تصوروا حفرة ربما كانت على سبيل العبث للحرب - تصوروا موقعة كبرى . لعلهم يرسمون الآن خريطة القتال .. وابتسم فى نفسه ثم قال لزميله :

- لعلهم الآن مشغولون بهذه الحادثة وبالبحث عن علة معقولة لها .. بنا نبدأ العمل ١١ » .

فخرجوا .. خرجا من الخندق وعلى ظهر كل منهما حمولة . وكانت رائحة البنزين تملأ أنف الطالب ، وتقدما يزحفان ثم فرش القش على هيئة شريط دسا فيه شريط الطلقات النارية ووضعوا القنبلة عند حافته ، وكان طرق الفتيل يحمل لهبه الخافت قبل خروجهما من الخندق . وكان الفتيل محتاجا إلى نصف ساعة كانت كافية جدا لعودتهما إلى الطريق والعثور على شجرة الصنصاف والحبل . وعبور التربة . حيث الأرض هناك أكثر خصوبة وحيث ينتظرهم من يحملهم بسيارة .

وتم كل شيء بسهولة لم تكن متمشية مع العشرات الأولى ، وهبطا إلى الماء لكن الطالب فجمدت يده وهو في وسط التربة وكاد يفلت منه الحبل ولو كان زميله أمامه لضاع في الماء . لكن زميله انتبه إليه واحتضنه وسبح به ، وبعد ما خرجا من الماء ونزلا في الأرض المجاورة كان بانتظارهما من سيحملهما في السيارة ، وبدلوا ملابسهم وانطلقت بهم السيارة في أرض غير ممهدة ودون أن تشعل نور المصابيح . وفي إحدى القرى الواقعة على بعد خمسة كيلومترات من الشاطئ الغربي المقابل للمعسكر كانت عيون الشابين تنظر من إحدى النوافذ في الليل البارد لترى وهجا شديدا ناحية الشرق جعل السماء أرجوانية اللون ، لكن فرحتهم كانت مشوية بالقلق .. فقد كانا يتساءلان : هل تمت النجاة للثلاثة الباقين ؟

وعندما سألهم الفلاح المضيف عن عددهم ، قالوا : خمسة

فأجاب باعتزاز : ولا خمسة مليون ، الله يحميكم .
فعادت الخواطر من جديد إلى رأس الطالب ... تلك التى كانت
تملاً مخيلته ورائحة البنزين والليل تملاً أنفه - حين كان يقول بينه وبين
نفسه : « ماذا ستفعل فى المستقبل معركة عتادها قش وبنزين .. و ..
خمسة من الشبان يمهدون الطريق لخلق خمسة ملايين من الجنود المدربين
يوما ما .. و .. من صاحب اليد الطيبة التى سترمى بالقمقم فى البحر
على شواطئ مصر ١٤ »

وجلجلت من الفلاح المضيف ضحكة صافية وقال المضيف :
- نحن نفكر والله يدبر ، ألا تريد أن تستريح ١٤ ؟
فقال الشبان : لقد استرحنا فعلا .. تصبح على خير .

الحفيد الصغير

كان وحده فى مقصورة القطار .. وليس هناك نور يؤنس المقصورة
 إشعاع يتسرب من بابها الزجاجى يرسله مصباح الطريق الأزرق .
 كان ذلك بسبب الحرب ، والقطار يجتاز منطقة شبه عسكرية
 قادمة من محطة القاهرة إلى الشمال مارا بمعسكر « الخطاطبة » .
 لذلك فإن المقصورة بدت كثيبة لأبعد حد تنمى فى داخله أفكار الوحشة
 والضيق والضجر . ولم يخفف من حدة المنظر إلا أمله فى أن يبرز القمر
 فقد مضى وقت من الليل يؤكد أنه سينهض بعد قليل وعند ذلك
 يستطيع شعاعه الذى عجزوا عن تلوينه بالأزرق أن يلقى على المساند
 الجلدية فى المقصورة شيئا من الأنس . ويستطيع هو أن يرى فى المرأة
 الصغيرة المثبتة على الجدار صور المراثيات وهى تجرى نحو الوراء .
 إنه يحس بحاجة قصوى إلى النور لأنه سينزل فى المحطة الريفية
 فى وقت متأخر من الليل .. نعم .. لكن سفره كان ضروريا . وربما لم
 يكن أحد هناك بانتظاره . وفى الخريف تفيض المساقى على الطريق
 الضيق المؤدى إلى القرية . وإذا لم يكن هناك قمر .. فرما غاصت
 قدماء فى الأحوال . وسيكون منظره غير محبوب عندما يدخل على
 حشد الناس المجموعين أو ... حتى على أقاربه وهو بهذا المنظر .
 وحانت منه التفاتة نحو الشرق فرأى القمر خلف الشجر مثل قرص

من النحاس فى بهاء لم يشهده من قبل ... بهاء تحفه القوة لأنه سيمد له المعونة عن طريق نوره . وتذكر كيف أنه كان يلعب تحت نور هذا الكوكب دون أن ينتبه لأى شىء إلا اللعب . وجده جالس على مقربة منه يحذره من خطر مجهول . ويهدده بعصا غليظة من المحال أن يتحمل منها ضربة ، ذلك الجذ الذى اشتهر بالقسوة والبخل وطول العمر فى كل الرحاب . لكنه لم يستطع إلا أن يحبه لأنه لم ير أباه ... فقد مات أبوه وتركه ابن سنتين لا يعرف عن الوجود شيئا .

ولما كبر وعرف صورة أبيه عاش فترة وهو يجاهد أن يرى ملامحه فى وجه جده . خصوصا فى الأنف والجبين . الأنف المستقيم والجبين الواسع . تلك العلامة التى تكاد تكون إحدى بصمات الوراثة فى هذه الأسرة .

ارتفع القمر على الأفق بمقدار عشرين قامة . فغمر شعاعه الحقول وتسلسل من النافذة . وأحس هو بشىء يشبه الجوع أو الحنين ... بنزعة شباب حية ونداء لا يعرف الصمت . فتذكر عمره .. إنه فى الثلاثين . يشغل وظيفة فى « بنك » ويحب فتاة فى قسم « الكمبيوترات » ويسكن شقة صغيرة هادئة . وأخوه الأكبر من رجال البحر فى أحد المراكب التجارية عودته كثرة الأسفار نسيان الناس فهو فى نظر جده ونظره هو .. مفقود تقريبا .

وأخته التى تصغره تزوجت . وأمه .. تزوجت أيضا .. فبعد موت أبيه بخمس سنين تزوجت أحد رجال البوليس ونقل بها بعد عام من

الزواج ..

لكن .. إنهم يزعمون أن جده كان سببا لكل هذه الأحداث . فلم يكن موت ابنه إلا نتيجة طبيعية للحرمان والكبت . فكانت حياته مع أبيه .. مع هذا الجد .. نوعا من الصراع مع رجل يريد أن يعتمر كل شيء حوله ليصنع لنفسه مركزا في الريف مبنيا على سعة الممتلكات وعدد البغال والبقر . حتى أحس ابنه يوما ما أن الصلة التي تربطه بأبيه لا تزيد على صلة الأجير وصاحب الأرض . لكنه تحمل كل شيء على أنه في يوم ما سيكون هو المتصرف الأول . حتى إذا ما سنحت فكرة الزواج للابن نشب صراع من نوع آخر سببه التأجيل من محصول لمحصل حتى هدده ابنه ذات يوم بأنه سيتزوج فتاة بلا مهر .. تكون إحدى العاملات في حقوله . واعتصم بغرفته في البيت الكبير شهرا كاملا لا يخرج إلا لضرورة حتى أجيب طلباته .. ثم أنجب هؤلاء .. ومات بسبب إصرار أبيه ذات ليلة على عدم إحضار طبيب لابنه هذا ... لأنه مهمل في عمله .. مستهلك غير منتج .. لكن عندما اتضح له أنه لا بد من استدعاء طبيب المركز كان الالتهاب الرئوي قد قضى عليه .

كان القطار في هذه اللحظة يمر على مقابر كانت سطوحها المقوسة المتشابهة ظاهرة تماما في النور والصحراء من ورائها ممتدة في صفرة



كأنه هو الذي وهب نفسه العمر

وسكون شامل . فتعهد وتذكر المصير...

إن جده يبيت فى قبره الآن لليلة الأولى .. وها هو ذا مسافر بناء على برقية وصلت إليه . وهم هناك بانتظاره . وسأل نفسه : ترى ماذا عسى أن تقول أمد اليوم إذا ما علمت بوفاته .. لابد أنها ستذكر قصته مع زوجها الذى عاداه حتى فى مرضه حتى أهلكه التهاب الرئة . وربما كانت قسوته هى التى دفعتها للزواج فلم يكن من حوله يرى أن شيئا ما يوجب الضمان .

ثم عاد هو بأفكاره إلى « البنك ... إلى القاهرة مرة أخرى حيث ذكر الفتاة التى تحبه هناك .. ولعل قسوة جده هى التى ذكرته بالحب .. كما نذكر الجنة إذا ذكرنا النار . واستغفر الله له .. لأنه على الرغم من تقدم سنه فإنه لم يتضعض أبدا أمام حادثة ... كان يركب كل أسبوع ليذهب إلى الطبيب أو يذهب إلى المحكمة لأن قضاياه لم يكن لها حصر . فقد كان متخصصا فى شراء الأراضى التى ينكص عن شراؤها كل فلاح لما يحفها من مشاكل . وهو بذلك يأخذها بأرخص الأثمان . يمشى على الطريق متكئا على عصاه الغليظة مبلها بطول عمره ويقايا صحته لكل شاب يلقاه . كأنه هو الذى وهب نفسه العمر . ولذلك فقد بدا كائنا لايؤمن بالموت فأكسب هذا قلبه غلظة طارئة زيادة على الغلظة الفطرية .

وعلى الرغم من أنه عذب ابنه الأوحى فى سبيل الزواج فإن هذا الجدد تزوج خمس مرات ..

وتبسم عندما تذكر زيجات جده .. وأخرج علبة السجاير وأشعل سيجارة
ومن غلاف العلبة التى لاصقت مندبلا فى جيبه فاحت رائحة عطر ذكرته
بالتى يحبها .. وسأل نفسه : لماذا لم ينجب جده من الأربع اللاتى
تزوجهن بعد الأولى . لكنه ما لبث أن ضحك حتى ارتفع صوته وحده
فى المقصورة فقد حكى عنه بعض الناس أنه كان مولعا بالبحث عن
العواقر من الأرامل ... فكانت « خاطبة » القرية تقدم إليه فى
المناسبات أسماء من عرفتهن من هذا النوع فى المنطقة كلها ، وعند ذلك
يجزل لها العطاء . يرسل إليها غرارة من القمح أو خمسا من الذرة
فضلا على جلباب من الحرير الأسود .



وها هو ذا قد مات تاركا زوجته الخامسة . وحدها مع خادم عجوز
أعمش يتحسس كل شيء بيديه . يريد من يدلّه على الطريق قبل مغيب
الشمس .

وأحس وهو فى المقصورة عندما وصل إلى هذا الحد من التفكير أن
كل شيء قد هدأ . وخامره استرخاء غريب جعل النوم أقرب ما يكون
إليه فالتقى رأسه نحو الراء واستمع إلى صوت العجلات الرتيب فلم
يشعر بشيء حتى توقف القطار فى المحطة التى يجب أن ينزل فيها .
لاحت له على بعد أضواء « الكلوبات » تغمر البيت الكبير .
المنعزل عن القرية .. وحيدا .. نحو الشرق فى مكان لا يؤنسّه إلا واپور
الطحين .

وعندما كان يجر أقدامه فى الأرض الفضاء التى تحيط بالبيت كان يتذكر أيام طفولته . وكان القمر فى بهائه فأحس كأنه عاد طفلا يلعب وعصا جده تهدده وتخيفه بشىء مجهول . وعندما خطا إلى الداخل انعصر قلبه . كان الباب الخشبي الضخم مفتوحا والحجرة التى مات فيها أبوه تقع على يمين الباب وأحس كأن البيت يودع آخر ذكرياته لكنه على كل حال غير آسف عليها فكأنما السور العالى المرتفع المصمت المضروب حول البيت قد فتحت فيه عدة نوافذ وكوى على الحقول . ولم يسمع أنينا ولا بكاء . فكان موت هذا الرجل الذى لم يذكر الموت تأكيد لقصر الحياة ووجوب انتهاها . ورأى هذا المعنى بوضوح على وجوه من بالداخل .. فى الصالة الكبيرة التى تسع نصف ألف من الجالسين .

لم يكن فيها إلا الأقرباء المقربون الذين سلموا عليه وتبادلوا الكلمات المألوفة « البركة فيك » بطريقة خالية من اليقين .

وعجب هو لأنه رأى شقيقه نزل مصادفة فى الإسكندرية لمبيت ليلة فقرأ النعى . وسيسافر فى الصباح الباكر . وكذلك زوج أخته .

كانوا فى الصالة الواسعة التى انفض منها المعزون قلة قليلة . جلس بعضهم ينظر إلى بعض محاولين أن يتكلفوا فى نفاق شديد منظر الجد إن لم يكن الحزن ويتداولون فى فخار مصطنع أن الرجل الراحل كان فى خير صحة فى ساعاته الأخيرة وأنه كان على وشك توقيع عقد بشراء فدادين جديدة .

وظلل صمت طويل على الجالسين ممن يمتنون إلى الراحل بصلة

« الوارث » ربما ظنه أحد حزنا لكن كان كل منهم فى حقيقة الأمر يريد أن يدبر أموره بسرعة لأن الوقت أمام الموتى طويل ومن الممكن أن ينتظروا جميعا حتى يوم القيامة أما الحفيد الأصغر فيجب أن يكون فى « البنك » بعد يوم . والحفيد الأكبر فيجب أن يكون فى الميناء قبل الظهر . وكان هذا هو أشجع الحاضرين فقد تكلم بلا مقدمة حتى بلا تنحنح أو سعال وقال :

.. كيف سنتصرف فى التركة ؟ .. أنا مستعجل !! إن مهنتى لاتعرف الانتظار .

فرد عليه زوج أخته :

.. أليس من العيب أن نتكلم فى هذا قبل مرور يوم على جدك ؟

فرد باقتناع شديد :

.. لا .

.. لماذا ؟

.. لأنه ترك كل هذا مضطرا . ولو استطاع أن يأخذ كل شىء معه

.. لفعل ..

فبكّت زوجته فى ركن قريب عندما سمعت هذه الكلمة وبكى

خادمها العجوز . أما الحفيد الثانى فقد تنهد .

كان يذكر أشياء أهم من كل هذا . كان يذكر الضحايا القدامى

الذين كسحهم جده بحيله القضائية . ويذكر أباء وهو الذى كسحه جده

بعناده ، وأمه تلك التى لم تنطق الحياة معه فتركت أولادها وتزوجت بعد

ما أحضر لها زوجة له عاشت معها فى البيت امرأة عاقرا ضخمة الجثة
 كأنها رئيسة السجانات . تعاركت معها فأكلت كفها بأسنانها كما
 تفعل النمرة ، والجد على مقرية منهما يرقب المعركة كما ترقب الريفية
 عراك الدجاج ... لا أكثر !!

وجعل الحفيد الأصغر يفحص حجرات البيت الواسع العتيق . ذى
 السور العالى الخالى المصمت المطبق على الأثانية طوال نصف قرن .
 وجعل يفكر من منهم يستطيع تعمير هذا الربع ١٢ . ثم ما لبث أن سمع
 شقيقه الأكبر يقول :

— أنا سأبيع نصيبى من الأرض » ونظر لهم جميعا بعين متحدية «
 والبيت أيضا » وحك الأرض بحذائه « وسأخذ هذا كله لأساهم به فى
 بناء مركب تجارى صغير أنا وجملة من الشركاء .

لم يرد عليه أحد . وظل الصمت مطبقا . فزاد الحفيد قائلا :
 وكذلك نصيبى من المواشى ، وسأجعل أخى الأصغر وكيلا عنى فى هذا
 . وسأعود إلى هنا بعد ثلاثة شهور لأجد كل شىء منتهيا .

ووقف . كان الجميع صامتين . وبلغ بهم الدهش والخوف إلى حد
 أنهم توقعوا أن يخرج إليه جده من إحدى الحجرات بالعصا الغليظة
 ويهوى بها عليه . ولما لم يأت رد أحد استطرد الحفيد الأكبر :

— سأنام .. سلام عليكم ..

وانصرف ..

نظر بعضهم إلى بعض . ومالبت زوج الحفيدة أن ضحك . كانت

ضحكته تغنى أنه غير ملزم على مجاملة من يرون الأمر هكذا .. إذن فلا حياء . وسيختار هونصيب زوجته الحفيدة بكل حرية . وعندئذ تدخلت زوجة الراحل وطلبت نفس الشيء . وأما الحفيد الأصغر فقد ظل صامتا حتى إذا ما احتدم الجدل أعلن أنه غير حريص على شيء إلا أن يكون هذا البيت من نصيبه وحده . ومادام هو وكيلا عن أخيه الأكبر فليس هناك مشكلة ..

فقال زوج أخته :

— ومن منا يريد أن يسكن هذه القلعة .. إنها قلعة مخيفة مملأها جدك ظلما ، وأنا أعلن بالنيابة عن زوجتى تنازلها عن حقها فيها ، فنحن نسكن شقة فى البندر .

وعند ذلك شعرا الأصغر بما يشبه السعادة . شعر أنه سيعمل شيئا إنسانيا رائعا بالنسبة للجد . هذا الذى عاداه أهله حيا وميتا . ومن وجهة نظره هو فإن خصام الموتى لا طائل تحته ماداموا لا يقفون فى وجه الأحياء ..

وعند ذلك أعلن أنه سيشتري منهم جميعا أنصبتهم فى هذا البيت لأنه هو الذى سيسكنه .

ونظروا إليه متعجبين وقال أحدهم :

— إنك فى القاهرة .. موظف فى بنك .. فكيف ..

فقاطعه بسرعة :

— ذلك شأنى لأننى لن أبيع هذا البيت لأحد .. إنه يحمل ذكرياتنا ،

أما الأرض فلها شأن آخر ..

مضت على هذه الحوادث شهر ثلاث .. رأى بعدها سكان القرية مشهدا عجبا . كانوا لا يصدقون أعينهم عندما رأوا عربات تنقل أثاثا جديدا غربيا ليدخل هذا البيت . ودبت فيه حركة أسمى وأعلى . وفتحت جميع النوافذ بكل المصاريع . ذات صباح والحفيد الأصغر حاضر ليشاهد الحركة .. وكلما مر فلاح وقف يسأل عن الحكاية ثم لا يلبث أن يضحك ملء صدره ويمضى نحو الحقل ..

وعندما واقت الساعة الثامنة هذا اليوم تقدم الحفيد الأصغر ومد بيده فأمسك حبلا دق به جرسا . وعند صلصلته سكن الضجيج ... ضجيج تلاميذ القرية الذين تجمعوا فى الطابور وأنشدوا نشيدا وطنيا .. والحفيد الصغير واقف مع الناظر يستمع إلى الصوت النادى من حناجر الصغار .. وعيناه مغرورتان بالدمع فقد استطاع بضربة واحدة أن يكتب لهذا البيت صفحة جديدة تنسى القرية ما جرى فيه من ظلمات ..

وقبل أن يسافر إلى عمله ويلقى حبيبته ذهب إلى قبر جده وسقى عليه شجرة من الصبار كان قد زرعها حديثا .

اللقاء

فى الطريق إلى السوق لم يكن الزوج يحكى أى حكاية .. وكان صامتا على غير عادته يسبق امرأته بعدة خطوات والشمس لم تشرق بعد . وجماعات من العصافير نهبها الدفء تسف على الحقول . تطير بها فرحة لعلها لم تكن فى قلب المرأة ..

لقد كانت تتعارك مع زوجها طول الليل . بسبب ذكريات عقيمة من الخير أن تنسى . استرجعتها وهى سائرة فأحست بطعم الملح فى حلقها لأنها شرقت بالدموع .

كان هو لا يزال أمامها . ترقبه عينها بوله وحب .. على الرغم من القسوة التى أحالت فراشها إلى شوك . وظلت طول الليل وهو نائم، تبكى فى صمت وتعد أخشاب السقف حتى سمعت صياح الديوك ، فنهضت قبل أن يتسلل النور وأيقظته ليذهبا معا إلى السوق .

وعندما وصلت أفكارها إلى هذا الحد كانا قد وصلا إلى منعرج طريق وقابلهما شخص يعرفهما فألقى عليهما تحية الصباح ثم وقف وسلم . وأحست الزوجة وهوى ضغط على كفيها وينظر فى عينيها أن على شفتيه سؤالا من المحال أن يتجسم كان يسألها !

— هل أنت سعيدة ؟

وانصرف الرجل وواصل الزوجان سيرهما وعادت هى بأفكارها إلى

الليلة الماضية عندما وضعت العشاء أمامه وهى مليئة باللهفة ... فطير من القمح الجديد وطبق ملآن بالعسل . وجلست تأكل . ولكنها أحست وهى تجاذبه الحديث أن شيئاً غامضاً يظلل عليه . ولم تعره اهتماماً كبيراً فى بادئ الأمر فقد قدرت أن المفتاح السحري الذى تدبره المرأة فى قلب كل رجل قادر على أن يزحزح الرصد فيتوج الحب ويملاً المكان عطر غامض كالذى يدخل عليهما من المصراع المفتوح من النافذة عندما يتقدم الليل فيسألها وتسأله عن مصدر العطر وهما لا يعلمان أنه من داخلهما ..

أما فى الليلة الماضية فقد كان الزوج يأكل وهو واجم . وبدت عملية الطعام ثقيلة جافة ولكنها هى التى أخذت تفتح باب الحديث .. فقالت وهى تتكلف ابتسامة :

— هل تعلم يا صادق أننى ارتكبت جريمة صباح اليوم ؟
ولم يتوقف عن المضغ ولم يقل شيئاً . كل ما عمله ساعته أن نظر إليها بعينين نصف مغمضتين تشيع منهما نظرة لوم قوية قصيرة الأمد أشبه شئ بقبضة جبارة دفعت بها إلى الوراء . ولو أن اللقمة التى كانت فى يدها كانت مغموسة فى العسل فقد أحست عكس ذلك . لكنها قررت أن تقاوم فتركت ابتسامتها تتحول إلى ضحكة فيها مرح ووعد ونبرة حب ... ثم استطردت تقول :

— لم تسألنى يا حبيبى أى جريمة ارتكبتها .. ألا يجب أن تسأل ؟
فرد بلا مبالاة :

— قولى !

فقلت وقد أحست بأن قلبها ينبض :

— جلبابك الصوف القديم احترق فى عدة مواضع من شرارة نار

فردد آخر كلماتها :

— نعم .. من شرارة نار ..

— هيه ..

واستطرد يمضغ ثم يتكلم . كان يغمس الفطير فى العسل ويقذف به إلى فمه وهى تنظر وتسمع صوت المضغ . وأحست أن هذا شيء بشع . ولأول مرة أدركت القروية بما لا يمكن تفسيره أن مراقبة من يأكل عمل كريمة . قد لا يحس المرء كراهته وهو يراقب بقرة مثلا . وكان الصمت شاملا . وكانت كل الأفواه فى القرية مشغولة بالأكل فلا وقت للكلام . أو كأن الناس نائمون . وزقزق طائر مختنق على شجرة قريبة تفهم الأذن العادية من صوته أن أقوى منه قد سطا عليه . وتنهدت الزوجة وهتفت تسأل :

— صادق .. هل أحزنك هذا الأمر ؟

ولم يجيبها منه إلا صوت المضغ . ثم كركرة الماء وهو يتدفق إلى فمه من القلة الى يشرب منها . وعاد الأكل فأحست أنه من الضروري أن تعتذر :

— صادق .. كان الجلباب من الملابس التى ستغسل على مقربة من

الكانون .. وفجأة فرقع فى النار شيء .. خفت .. جريت بعيدا ..



كان يغمس الفطير في العسل ويقذف به إلى فمه

أحسست أن إحدى عيني ستذهب إن بقيت فى مكانى .. خفت
يا صادق .. آه .. ألا تسمع ؟

— سامع ..

— آه .. خفت أن تكون رصاصة قد دست فى الوقود . كانت قطعة
من الحجر أو الملح فى النار . ونسيت كل شىء وبعد مدة اكتشفت أن
شرارة سقطت فى طبات الثوب .. آه .. آ .

ولما لم يرد انبثقت منها ضحكة طويلة .. هيستيرية تغلب بها
على المآسى . ولكن الزوج لم يخرج من جموده . وظللت وجهه كآبة
سوداء . وشعرت الزوجة كأنها أمام رجل غريب . ولكنها أحست بين
هذه المخاوف بفرحة شواء . فرحة من تكاد توقن بأن إعراض زوجها
لهذا السبب التى قصت قصته لا لسبب خارجى ربما كن أخطر وهى
التى .. وهى التى ..

وكفت عن التفكير وسكتت . لكن الزوج تكلم محتجا :

— يعنى .. احترق الجلباب ..

— إنه قديم .

— ها ها ها .. قديم ؟ .. ومن قال إن القديم رخيص ؟

« وأشار بيديه إشارة مخزية » القديم غال ..

— « القديم غال ؟ »

سألت نفسها ورددتها وهى سائرة خلفه على الطريق ذاهبين إلى

السوق : « إنه أهاننى » وكادت تذرف الدمع من جديد .
 إن الدليل الحاسم على الإخلاص شيء لا وجود له . كيف أثبت
 لصديق أننى أحبه .. آه .. هذا ذنبى . ثم جرها من أفكارها صوته
 وهو يناديها . لقد قاربنا دخول السوق . وعندئذ سارت إلى جواره .
 كان ذلك ضروريا حتى لا تتوه منه أو يتوه منها .. وأوصته بهمس
 عذب أن يحترس ففى جيبه أربعون جنيها ثمن البقرة التى سيشتريها
 اليوم . ولما دلفا إلى السوق استطاعت الزوجة لفترة طويلة أن تنسى
 حوادث الليلة الماضية لأنها كانت تتأمل الوجوه الكثيرة التى تزدهم
 حولها فى السوق ..

ولم يدخلوا القرية ثانية إلا بعد هبوط الظلام . وكان التوفيق
 الظاهر فى هذه الصفقة سببا فى صفاء الليلة فنام الزوجان سعيدين ..
 واستيقظت هى فى الصباح الباكر فحلبت اللبن وجهزت له فطورا شهيا
 بالسكر والحليب . وخرج هولبعض شئونه وذهبت هى بالبقرة إلى الحقل.

ظلت ترعى طول النهار وتغنى . لم يكن أحد يسمعها حتى وإن
 كان هناك من يسمعها فهى لاتراه .
 فهى تائهة بين أعواد الذرة تراقب جلبابها المشجر وجسمها
 النادى .. ذلك الذى فتن « صادق » ..
 وترفت بأغنية حب .. آه .. كم تحبه .. وبلعت ريقها وتذكرت

غضبه منذ ليلتين .. ليلة حدثها حديثا ملفوفا عن الجلباب القديم ..
ماذا كان يقصد ؟! آه .. ليس هذا .. إنه غير معقول .. إنه يعلم أنني
ضحيت به من أجله هو .. يعلم أنه ليس أغلى منه .

وعادت تغنى بين أعواد الذرة وهى تجز الحشائش لكنها اختارت
فى هذه المرة - بلا وعى - أغنية حزينة . وانقضى اليوم .. مالت
الشمس إلى المغيب .. وأخذت قوافل الماشية فى العودة أمام الفلاحين
إلى الدور . وسحبت الزوجة بقرتها وعادت .

ولكن حدثا لم يخطر على بالها وقع فجأة : عندما كانت
تعبر القنطرة المؤدية إلى القرية جمحت البقرة كما يجمع الثور وجاذبت
الزوجة الحبل وأفلتت منها .. واستهانت الزوجة بالمسألة بادية الأمر
ولكنها أحست بشعور غامض أنها أهم مما تتصور فقد كانت البقرة
تجربى برعونة .

ولم يستطع أحد أن يحجزها فجرت هى وراءها حتى لاتضل
عنها . وغابت فى إحدى المنعرجات والليل يهبط فلم تدر الزوجة إلى
أين ذهبت البقرة .

ومثل هذه الحوادث فى القرى ليست عظيمة الأهمية فإن العثور على
المفقود ممكن على أى حال ، وبعد مدة أمكن الزوجة أن تستدل على
مكانها فقد دخلت إحدى الدور وكانت مفتوحة الباب والتف حولها فلاح
شاب وأمه وأبوه وهم يهتفون ويصفقون بدهشة من رأى ميتا يبعث .
- أليست هذه بقرتنا ؟ .. تعالى يا أمى فأنت تعرفينها .

ولمست الأم ضرعها وهتفت مؤكدة :

— يا إلهى .. لقد بعناها منذ سنة فكيف عرفت الطريق إلى دارنا؟! من هذا الذى اشتراها من قريتنا . بارك الله له فيها .. انظروا إلى الوفاء فى قلب الحيوان ..
واستطردت الأم :

— تعال يا عبده فانظر الوفاء !

وتنهدت تنهدا له معناه .. وعلى باب الدار كانت صاحبة البقرة واقفة بعد أن عرفت مكانها .. كانت مترددة فى دق الباب تذرِف دمعها فى صمت ، وتأتى إلى أذنها همسات غير مسموعة من زوجها صادق « القديم غال » .. لقد قيل له إنها تكلمه فى الطريق .. هذا الشاب صاحب هذه الدار كان صاحب هذه البقرة منذ سنة وزوج هذه المرأة من سنتين ..

ثم أحبت « صادق » فهجرته هو وتزوجت حبيبها ، ثم باع البقرة فى السوق . وها هى ذى قد اشترتها من جديد . ولما سلكت الزوجة القديمة والبقرة الطريق العام هربت البقرة إلى وطنها الأول ..
وكان على الزوجة أن تفعل شيئا ..

فتقدمت وطرقت الباب وخرج الزوج القديم والحماة وهى تحمل مصباحا ريفيا وينظران فى لهفة إلى الطارق ، وعندما وقع بصرهما عليها شهقا فى صمت ثم رجعا وقاداها إليها فسحبتهما بعنف . ومشى البقرة تنن وتتلفت .. أما الزوجة فقد كان قلبها يبكى .. !

الحصن الكبير

لم أكن أتوقع أن هذا اليوم سيكون مشحونا بالعواطف وأنا
 مهما امتد العمر بنا تستطيع حادثة صغيرة أن تعود بنا إلى الورا
 عشرات السنين ، فنعيش العمر كله فى واقعة يعيشها غيرنا . ويستبد
 بنا الشعورحتى يتلاشى الإحساس بالذات . وهذا هو ماوقع لى صباح
 أمس وأنا ارتدى ملابسى للخروج إلى عملى ساعة الصباح وفى
 الحجرة المقابلة المفتوحة الباب حوار مبهم يأتى بعضه ويغيب عنى
 معظمه .. كان قائما بين ابنى وزوجتى تتخلله أحيانا ضحكات من الأم
 وحينما صوت تهديد .. وفى لحظات أخرى كنت أسمع صوت ابنى
 مستعظفا .. رقيقا حنونا يلين الحجر . وفى لحظة تالية كنت أسمع
 ضاحكا متحمسا تشوب حماسه رهبة من يساق إلى الحرب للمرة
 الأولى .

أما أنا فكثيرا ما كنت أتجمد أمام المرأة وأنسى نفسى .. أنسى
 أننى ألبس لأذهب إلى عملى . لأن قلبى كان يتابع الحوادث فى الحجرة
 القريبة . ثم انتهيت من عملى بشكل ما ، وجلست فى الصالة أنتظر
 ابنى وأنا أحلق فى عداد النور و « مسبحة » نسيتها أسمى على أحد
 الكراسى من الليلة الماضية ..

وخرجت من الحجرة البعيدة فى الشقة زوجتى بملابس البيت وهى

ممسكة بذراع ابنى . وقابلتهما بنظراتى وأنا أتأهب للقيام وأنظر فى ساعة معصمى بقلق حتى لا أتأخر عن عملى . وكانت زوجتى تكتم ضحكها وكان ابنى يحبس دموعه ، ولو أننى لاحظت على أحد خديه قطرة من الدمع مثل حبة من الندى نسى أن يمسحها قبل خروجه .

وامتزجت فى تصرفاتى الصرامة بالحب والقسوة بالحنان فى الوهلة التى مددت يدى إلى ابنى لنخرج معا . ورفع إلى عينيه وهو جامد لا يتحرك ووضع يديه الاثنتين فى جيبه ولم يتحرك . كنا واقفين عند الباب نؤلف نحن الثلاثة دائرة إن أمكن ذلك . ورأيت فى عينيه السوداوين توسلا لم أره فى حياتى . أحسست أن قلبى قد استجاب له ألف مرة ولو أن الحياة ترفضه بعنف . وعضت زوجتى شفتها بأسنانها فى أزمة عاطفية وتركتنا ودخلت . وبقيت أنا وهو وجها لوجه .. عيناه ترسلان توسلا يستجيب له قلبى وترفضه الحياة ، وكل ملامحه تنذر بقرب البكاء . وبدا الضعف والقوة على وجه الطفل فى هذه اللحظة كسلاح جارج يدعونا لأن نقبله . وناديته فلم يرد . ومددت إليه يدى فلم يمد لى يدا ، فأخذت أتأمل فرحة الأمس وفرحة اليوم . عندما ذهبت أنا وهو لشراء الملابس الجديدة اللازمة للمدرسة وكان يلبسها كل يوم مرتين ويقف أمام المرأة ويتبخر فى فرحة انتظار العيد . « المريلة ذات الحزام ، والقميص الأبيض .. كانت كل هذه الأشياء بالنسبة إليه فاتنة جدا حتى أمس . أما فى هذا الصباح فقد صارت مثل عدة الحرب .

وناديته مرة ثانية فلم يرد . فقلت له لكى أغريه :

— ألا تحب أن تكون رجلا مثل باب وتلبس البنطلون وتحمل ساعة؟
أثرت فى نفسه هذه الأمانى التى طالما تمنّاها طوال الصيف على
أمل أن تفيدنى فى حل الأزمة ويتحرك للذهاب إلى المدرسة لأول مرة
فى حياته . لكنه أنكر كل هذا فى عناد . وأعدت عليه السؤال فهز
رأسه نفيا . فقلت له :

— كل الأطفال يذهبون إلى المدرسة ليكبروا ، وكل طفل لا يذهب
إلى المدرسة لا يكبر أبدا . يظل طفلا صغيرا قصيرا طول العمر.
ومستحيل أن يلبس البنطلون الطويل مثل بابا . فما رأيك ؟

وهنا بدا التفكير فى عينيه السوداوين . وحرك شفتيه ولم يقل
شيئا . ومد لى يده فى صمت فاتجهنا إلى الباب وكانت أمه متوارية
فى أحد الأبواب تنظر من فتحة الحوادث الكبيرة ! .. بالنسبة للطفل..
أما الدموع التى كانت واقفة فى عيني الطفل ، وهتف من خلال شهادته
بطريقة أشعرتنى أنى أشهر سلاحا قاتلا فى وجه ولدى ، هتف أحمد :
— الحقينى .. يا .. يانينة .

ثم أمسك فى كرسى ثقيل لا يريد أن يتحرك .
وجاءت من الداخل زوجتى مستغرقة فى ضحكة هنية صافية ،
فحملت الطفل إلى جدته التى لاتستطيع مغادرة الفراش ، وتبعته أنا
إلى حجرة « المداولة » هناك حيث تنام أمى . فوجدت أحمد يبلى خدها
بدموعه ويعدها هو ... هو شخصا بالحلوى والشيكولاتة .. فلما أحس
أن جدته تراوغه نظرت إلى بعينه السوداوين كمن يفكر . وما لبث



وهنا بدأ التفكير فى عينيه السوداوين
وحرك شفتيه ولم يقل شيئا

أن أشاح عني ببصره حين رأى الأمل مفقودا عندى وصعد إلى فراش جدته وطوق عنقها ثم أكب على أذنها يهمس لها بما لم نسمعه . همسات كانت تقطعها الشهقات استغرقت بعدها أمى فى ضحك شديد واحتضنت الطفل قبله حتى كادت تكتم أنفاسه ثم باحت لنا بالسر من خلال دموعها وضحكها :

— سيفعل لى ما عجز أبوه عن فعله . سيدفع لى نفقات الحج . بشرط ألا أدعكم تذهبون به إلى المدرسة .

وأمسكت أنا بيده واتجهت به إلى الباب . وهناك قبل اللحظة الحاسمة .. قبل أن نقف وراءنا باب الشقة الذى يمثل عالمه بأسره . طلب منى أن يقبل أمه . وكنت متصورا ماذا سيحدث لكنى لم أجد مفرا من التسليم ، ومالبثت القبلة أن تحولت إلى عناق أشبه بالحصار الذى لا يفك ، وأملى الطفل علينا شروطا جديدة هى أن تذهب أمه معنا .. لا بد أن نذهب إلى المدرسة نحن الثلاثة . وبدأ يسكب دموعه فى صمت . فى استغراق الكبار حين يعتقدون أن الحديث عن المأساة معاد وأنه لا شىء يجدى إلا الدموع .

ودخلنا إلى الصالة ولبست أمه لتخرج ، وأمسك كل منا بكف من يديه الصغيرتين وسار بيننا يتلفت . ينظر إلى الحوائط كأن عليها رسوما لانراها . وعند باب الشقة وهو بينى وبين أمه وقف من جديد ونظر إلى الداخل ولمعت نظراته بمعان كبيرة .. كبيرة بمقياس الإحساس وكبيرة بمقياس السن . ونادى أحمد مثل رجل مكتمل الرجولة بصوت

مرتفع شرخته الدموع . نادى على أمى وهو واقف بينى وبين أمه :

- نينة .. نينة ..

فجاء ردها من الداخل :

- نعم يا حبيبى ..

فرد والغضب يملأ نبرات وقسماته ، وبأعلى صوته :

- أنا مخلصك .. مخلصك .

فلم يأتنا رد . فنظر إلى وجهى ثم إلى وجه أمه . وقال بإصرار

شديد :

- يا للاً بأه .

وخطا إلى خارج الشقة بين أوبريه . وأقفلنا وراءنا الباب .. باب

شقتنا فى نظرنا وباب العالم فى مقاييس الصغير . وكان يخبط الأرض

بحذائه فى كل خطوة كأنه يؤكد لنفسه أنه يتقدم ..

لم نكن نتكلم . لا أنا ولا هى ولا الطفل . كان الصمت أضمن

بلا أدنى شك . وكنت واثقا أن المشكلة لم تنته بعد ... ستتجدد المتاعب

عند باب المدرسة .

لكن الدهول الذى كسا وجه الطفل من المجموع الذى كان يطن

كالنحل فى الخلية لم يترك له فرصة للخوف ولا الاحتجاج ولا الهرب

ولامجرد الكلام . نعم . واعتراى إحساس مثل إحساسه وأنا أخوض

بين هذه الأزهار وأتأمل وجوه بنين وبنات سيمسكون بدقة المستقبل حين

أكون أنا وأمه وجيلى وجيلى فى فراش الشيخوخة .

وسمعنا أطفالا تبكى .. لكن الغريب فى الأمر أن أحمد كف عن
البكاء . لم أستطع أن أستكشف حقيقته نفسه وهو غالب نوازعه .
لكننى أدركت أن شيئا واحدا هو الذى ألبأنا إلى هذا الموقف .. وهو
أن حصنه الكبير كف عن الدفاع . جدته .. أسلمته بيدها للمدرسة
على الرغم من تكفله لها بكل « الطلبات » !!

وعندما دخل باب الفصل قبلناه أنا وأمه . وكان هو صامتا .
تبادلنا الموقف . تحولنا نحن إلى أطفال .. وكادت دموعنا تغلبنا ..
فحاولت أن ألون الموقف بلون مفرح فسألته :

— هل تريد شيئا يا أحمد ؟

فهز رأسه بكبرياء من سثم من نفاق الناس ، وقال هامسا :
— لا ..

— عال .. مع السلامة ..

وضحكنا وعيوننا تدمع أنا وزوجتى .

وهناك فى المكتب سألنى رئيسى :

— لماذا تأخرت ؟

فقلت له مبتسما معذرا :

— كنت أنقل اسم ابنى من دفتر لدفتر .

فزاد وجهه استفهاما . فاستطردت :

— كنت أنقل اسمه من دفتر غير المسئولين .. إلى دفتر المسئولين .

لقد دخل باب الحياة من باب المدرسة .. ياسيدى .

حرف النون

أخذ يتأمل الخط الدقيق الذى كتب به العنوان على غلاف الرسائل بعينين قلقتين . لم يدر لم استوقفه منظرها بين مجموعة الرسائل التى حملها بين كفيه بعد أن رتبها ترتيبا يتناسب مع أرقام البيوت فى الحارة . وعندما تخطى المنزل رقم (٨) وأنهى فيه مهمته أخرج الرسالة الأنيقة ليلقى عليها نظرة أخيرة : « ما أجمل هذا الخط النسائى ! .. إنه يشبه خط التقارب مثل ملامح الأطفال » .

وتنهده وهو يقطع الأمتار السبعة التى تفصل المنزل رقم (٨) عن المنزل (١٠) وحقيبة الخطابات مشدودة إلى كتفه بسير من الجلد أصابه الجرب فى عدة مواضع . ثم ألقى نظرة أخيرة على الرسالة ونادى بأعلى صوت فى حوش البيت فمالبث أن جاء يسعى شاب فى مثل عمره فى بيجاما من قماش رخيص ولهفة لاتفوت الأعمى . وكان يبدو عليه أنه فى انتظارها وأنه يعيش على كلماتها .

وفى مساء هذا اليوم لم يدر لم وثبت إليه صورة الشاب بشكل أوضح . عندما فرغ من العشاء وانزوى فى ركن من المسكن الصغير . كان أبوه يثرثر بمتاعب النهار وأمه تصرخ فى أولادها المتقاربى السن . فى يد الأكبر كتاب وفى يد الأصغر شقة من البطيخ ، أما هو .. ساعى البريد .. الابن الذى يلى والده فى تحمل المسئوليات ، فقد كان فى

الركن أشبه بالماء الراكد . لم يكن شىء ما قادرا على تحريك نفسه .
فى حالة لاهى ملل ولا هى يأس . ولاهى شبع من الحياة . أقرب ما
تكون إلى عدم المبالاة المؤقتة التى ننظر بها إلى أحداث تهمنا كثيرا ،
وكان وقتئذ يتصفح جريدة الصباح مع أن الوقت ليل فشعر أن التوتر
الذى يسود الدنيا شىء لاقيد له . فى تفاهة صدام يزول بقرص من
الأسبرين ..

ثم فطن إلى تفاهة أفكاره هو وضحك من أنفه فى الوقت الذى
وقع فيه بصره على صورة لشاب ضاحك منشورة فى أحد الإعلانات
التى زحرت بها الصحيفة . عندئذ تذكر أنه رآه وأنه يعرفه . وأبعد
ناظره عن الصحيفة وحملق من خلال النافذة فتاهت نظرتة فى الظلام..
ولم يهتد إلى صاحب هذا الوجه .. لكنه لم يلبث أن شهق عندما فطن
أنه يشبه وجه الشاب الذى رآه صباح اليوم وسلمه الخطاب الأنيق ..
لماذا يشعر نحوه بالحسد ؟

ولم يجئه الرد . كان إخوته يتشاجرون على اللب بعد تحميله
وأغنية تائهة تأتى من الظلام . ولم يدرك لماذا شم رائحة عطر . ليس فى
الحارة نساء يتعطرن كثيرا ولا حديقة على مقربة من المسكن . وخيل
إليه أنه عطر نعيمة . وعاد فابتسم قائلا فى نفسه : « عطرها ..
وخطها ؟ وهذا غريب » لكنه تناسى كل هذا عندما نظر فى صحيفة
اليوم ورأى الوجه الضاحك مرة أخرى . وتذكر الشاب الذى سلمه
الرسالة . لماذا يشعر نحوه بالحسد ؟ خيل إليه أنه يأخذ من السعادة

فوق ما يكفيه فهو بالتالى يجور على الآخرين . وتذكر عينيه . إنها سر شخصيته . لم يدر صباح هذا اليوم أى حالتيهما أخطر عندما حملق فيه وهويتسلم الرسالة أو عندما أغضى وهو يتفحص الخط : « ليتنى أملك مثل عينيه . كانت نعيمة فيما مضى تحدثنى عن سر عينى الضيقتين بطريقة من لا يقصد المدح فى الوقت الذى ترفعنى فيه إلى السماء .. آه ! »

وتنهذ .. رمى بالصفحة تحت قدميه وأطفأ نور الحجرة ووقف فى النافذة ينظر فى الليل ..

كانت هناك أنوار تتوارى . لكن ارتفاع المسكن والأرض البكرالتي لم تبعد جعلت الليل أشبه ببحيرة تلمع فيها أنوار مراكب لا تتحرك . وأخذت نعيمة تبدو أكثر فأكثر . مثل صورة وحشية لا تظهر إلا فى الظلام . رآها فى آخر صورة لها .. قبل أن يفترقا وقد نما جسمها بشكل يلفت النظر .. امتلأ طولاً وخصوبة .. وحتى الشعر بدا لطوله كأنه مستعار . لكن مهارة الطبيعة بدت عليها فى شئ آخر .. فى حادثة السن التى لم تفارق وجهها الصغير .. المستنير الأسمر اللامع كتلك الوجوه التى كانوا يدهنونها قديماً بزيت الزيتون . والابتسامة التى تحمل براءة الطفلة وخمر المرأة . والضحكة القصيرة الحرة التى تبدو أنها لا تبالي ..

وتخايلت هذه الصورة أمام عينيه . سلمت عليه بعدم مبالاة وهى تودعه . لم تكن ذراعها ممدودة وهى تسلم .. بل كانت على هيئة زاوية

منفرجة وضغط على أطراف أصابعها فى حلق وشوق فأفلتت ضحكة ومعها آهة . ونزل فى الظلام . لم يحاول أن يشعل لنفسه عود ثقاب حتى لا يتعثر كأنما استمرأ الظلمة .. كأنما ليختفى فيها من نفسه . فقد أحس ليلتها أنه مسبوق . وقد صارت نعيمة فى ميزان المجتمع أحسن منه .

وعاد يسأل نفسه « ماذا عسى أن تكون علاقتها بالأصدقاء بعد أن أصبحت طالبة فى الجامعة ؟ » .

وحضر أمامه - مجسما - شبحان لرجلين . أحدهما جار يقف فى دكانه على رجل واحدة لأن رجله الأخرى مريضة بالروماتيزم وذلك هو أبوه والآخر شاب مهندس يقطع حدائق الأورمان مع فتاة سمراء .. كان من الممكن أن يكون هو .. هو شخصيا لولا الرجل المريض بالروماتيزم.

وكاد يشعر بالحنق على أبيه . ثم عاد فعدل وكاد يشعر بالحنق على نعيمة ولكنه توقف ..

كان الفرق بينهما فى سنوات الدراسة سنتان . هى فى الأولى الثانوية وهو فى الثقافة العامة . وفى العمر سبع سنوات . ومع ذلك كان أستاذها ؟

فبعد أن قامت الصداقة بين أمها وأمه ندب ليعاونها فى الدروس . استمرت الحال بضعة شهور حتى اقترب امتحانه ، فانقطع ليستكمل استعداداه الشخصى ، وفاز فى الامتحان .. نال الثقافة

والتحق بمصلحة البريد وانتقلت هى إلى السنة الثانية الثانوية .. ولم
يستطع أن ينساها .

« ولكن .. لماذا لا يكون هذا هو خطها ١٢ »
إنه قادر على أن يعرفه فطالما كتبت أمامه .. وكتبت له ١١ .
كانت تقول له « أستاذى العزيز » فى كل ورقة تكتبها ، وكان يتألم
وهو يضحك فقد خيل إليه أن الحديث غير موجه إليه حينما تقول :
« يا أستاذى كأنما تناديه باسم غير اسمه . وبعد أن انقطع عن دراسته
كان ينظر إليها كلما لقيها فيحس أنها تنمو . كل شئ فيها يكاد
يسبقه حتى قبل أن تصل إلى المرحلة التى وصل هو إليها .
كان خائفا عليها ود لو استطاع امتلاكها حتى بالطريقة التى
كانت تخطف بها النساء فى الغابات .. لأن موجة الحب التى ظنها
ملكته كيانها بدأت تنحسر فعادت العلاقات إلى قوقعتها الأولى بين
الأمهات . وقبل ذلك كان كل لقاء يورثه عذابا نفسيا .. عندما كانت
تقول له « يا أستاذى العزيز » من خلال ابتسامتها المشرفة .
كان يحس أنها تخدعه بطريقة الأطفال الذين يخطفون الكرسى
من وراء الذى يهم بالجلوس عليه . ولذلك فقد كان كل مرة يشعر أنه
« سقط » وأنها تضحك من سقطته .

وكان آخر ما رآها فى ليلة زواج أخيها .

كان البيت يموج بالأنوار ، والزحام أكثر مما تصور. وكانت هي قد دخلت الجامعة ولكنها لم تكن بعد غيرت ثياب المدرسة الثانوية ولا طباعها ، وراها ليلتها في زينة متبهجة .

كاد لا يعرفها . خيل إليه أنها بلغت من العمر خمسة وعشرين عاما ووجهها الأسمر بدأ أكثر امتلاء . وبسمة غير مستحبة تقطع المسافة إليه كلما عبرت أمام الباب .

كان قلبه يتلظى . خيل إليه أن التاريخ سيعود وأن ما مضى لم يمت بعد . وفي إحدى روحاتها ألقت إليه بإشارة من رأسها فهم منها أن يخرج إليها . واعتراه خوف عجيب حتى كادت خفقات قلبه تعلو على نغمات « الأكرديون » . وتلفت حوله في ببطء ثم قام وأطل من نافذة جانبية فالتقت عينه بعقود الأضواء على صدر البيت . وتنحنح فتشجع وخرج . لم يكن يدرى إلى أين ، لكنه بعد أن ترك الحجرة لم يلقها حيث كانت . ونزل إلى الشارع ، وهام على وجهه نصف ساعة ثم عاد . وعندما كان يصعد السلم كانت نغمات تتناهى إليه كأنها تدعو إلى الرقص . ووقف على بسطة السلم بالقرب من الباب وإذا بنعيمة نازلة من سلم السطوح على شفتها السفلى ملامح من شربت كأسا !

ولم تحلق فيه . أولته ظهرها بسرعة ودخلت إلى حيث تجتمع النساء وتركت حائرا حيث كان يقف .. عندئذ أدرك أن النداء لم يكن له . تذكر أن شخصا ما قام من الحفل وخرج قبل أن يذهب هو إلى النافذة الجانبية ويستجمع شجاعته .. أمور كأنها أحلام !

« ماكان أجملها فى تلك الليلة حين حاولت أن تمنح نفسها سنا أكبر ! »

على أنه ظل فى مكانه مشدوها ، وتنهاهى إليه من أعماق الحارة صبيان يهتفون « العبيط أهو هه ! العبيط أهو هه ! »
لعلهم كانوا يطاردون أفقا ! لكنه على كل حال « فحص نفسه »
حتى تخيل إليه أنه المقصود بالنداء . ووضع يديه فى جيبي بنطلونه
وتشجع وصعد إلى السطح المظلم وفاحت من فضائه روائح مختلفة
معظمها روائح طيوركانت نائمة فى ظلام الصيف تفرق فى دعة . ولم
يلبث أن رأى شبعا لشاب منتصبا فى الركن واقفا وظهره إلى الصاعد .
وبعد قليل تحول ونظر إليه وظل كل منهما منتصبا أمام الآخر بلا تحية
ولاسؤال حتى رآه يتحسس جيوبه فتركه ونزل . وعندما وصل إلى بسطة
السلم التى تقع عليها الشقتان اللتان فيهما الفرع وقف قليلا فإذا
بنعيمة تحمل بين يديها طبقا مغطى بغطاء بيضاء وتنهب السلم صاعدة
إلى فوق .. عندئذ نزل هو إلى الخارج .

« لكن لماذا يكون هذا هو ذاك ؟ هل هذا ضرورى ؟ »
وسأل نفسه هذا السؤال ، ولكن لم يجئه الرد إلا بعد شهرين .
لم يكن هناك رسائل خلالهما تصل إلى المنزل رقم (١٠) حتى
جاء يوم فظهر بين الرسائل نفس النوع .. النوع الأنيق والخط الدقيق
الذى كأنه كتب بدبوس . وحملق فيه وعرضه لأشعة الشمس .. ود لو

طاوعه ضميره وفتحته . فقط يقرأ ما فيه ثم يعيد لصقه ويقدمه لصاحبه .. لكنه استكبرها على نفسه . ولم يلبث أن دلف لحوش البيت ونادى بصوت ود ألا يسمعه أحد . لكن امرأة سليطة الملامح قوية النظرات برزت إليه وأخذت منه الرسالة علي أنها أمه . وقبل أن يدير إليها ظهره وينصرف نادته هامسة وطلبت منه ما لم يخطر على باله .. أن يفتح رسالة ابنها ويقرأها عليها .. كان كل شيء فيه يرتجف .. فتش أول شيء عن صاحبة الإمضاء فلم يجد إلا حرفا واحدا .. كان هو حرف « ن » . ضعف أمله في أن تكون هي نعيمة . ولم يدر في هذه الرحلة مدى التعاسة والراحة اللتين ظلتا على قلبه . كان يريد أن يرتاح منها ولكن .. لاتزال للقضية بقية . وبلغ ريقه وبدأ يقرأ الخطاب .

... وكان لى صديق يحترم نزواتى لكننى كنت أطلب من لأحترم نزواته ... لذلك لم أشعر معه بالسعادة ...

وليلة الفرح أدرت له ظهري وصعدت إلى فوق .. وكنت واقفا في الظلام ، ولم تكن وداعتك المعهودة فأخذت تسب ملابسى الضيقة السوداء التى حمتنى منك فى الليل ..

.. وإذا كنت أنا أتلذذ بتحمل نزواتك فقد شبعتم مثلما شبعتم أنت تلذذا من فرض نزواتك على ومن الضرورى أن تفترق وأن نتبادل الرسائل : أعطنى ما عندك وخذ ما عندى فلم يعد لأحدنا عند الآخر شيء .. »

وحملقت فى الأم وحملقت هى فيه فاغرة فما كبير الأسنان وسلمها
خطاب ابنها وانصرف .. وظل طول الأسبوع التالى يفكر فى الأنسة
« ن » . إنها تكاد تكون هى حتى كانت إحدى الليالى . سمع لفظا
شديدا وهو فى حجرة داخلية . كانت أمه تتهم وتقبل وتعتب وتسلم
وترحب ثم تعتب . وخرج .. فإذا بأم نعيمة قادمة بعد غيبة وبينما هو
يسلم وقد عاودته الذكرى وإذا بالآنسة تهل من الباب . وغاب لونه
وجف ريقه . لكنه تناسى كل واقع .

ولم يطل بهم الجلوس حتى دخلت عليه نعيمة . كانت ذات خصوبة
حزينة وروئى منطفئ قليلا . وفى ابتسامتها شىء مختلف من حوادث
كئيبة . وسألته عن الأحوال ثم سألها هو :

— ماذا ستفعلين بعد التخرج ؟

— سأتزوج مباشرة .

وجف ريقه مرة أخرى :

— من السعيد ؟

— أستاذى !

فسرح بصره فى الفضاء .

— بدرجة دكتورا طبعا .. على الأقل .. هه ؟

فصطت شفتها وتركت أهدابها تسقط فى استسلام . وتنهدت .

وظلل صمت عاد فيه هو بخاظره إلى كل ما عرف . وبعد قليل تنحنح
وسأل :



ولم يطل بهم الجلوس حتى دخلت عليه نعيمة

— أستاذك العزيز؟ هـ .. أنا ؟

فأومات بالإيجاب :

— هل أصلح ؟! سيكون الفرق كبيرا إذا تغاضينا عن ..

فقاطعته :

— سأجعل مرتبى يحل مكان مرتبك فى الأسرة حتى تتم تعليمك

.. كله !

فحملق وفغر فمه وسأل نفسه :

— « ثمن أى شىء هذا ؟! هل هذا ثمن الحب ؟! .. حب من فى

الاثنين ؟! » .

وأحس أنه فى مكان المساومة . فيه شىء يباع ويشترى .

وأحس بالدوار الذى شعر به ليلة ودعها ونزل السلم فى الظلام . لم

يشعل لنفسه حتى عود ثقاب كأنما ليهرب من نفسه ..

وأمسك جبينه بين أصبعين بين الوسطى والإبهام كأنما يعانى

صداعا . وهمس لها :

— نعيمة .. كان بودى أن أفعل ذلك . ظللت أنتظر طويلا لكن

قلبى تركنى ومشى فوجدت أنى أنتظر بلا قلب .. إن القلوب لاتعرف

الانتظار يا آنسة .. « ن » !

فحملقت كأنما تذكرت شيئا . ونزلت سلما لم تصعده بعد ذلك .

العروسة

على الطريق الزراعى العام - حيث تطل كل الدور على حركة المرور . تقع دار صغيرة واجهتها مطلية بالجير .. حديثا . ويتصاعد منها دخان ورائحة خبيز وطبخ ورنين وزغاريد . وجلبة عند الباب . وعلى مقربة من الدار تجمع صبيان من مختلف الأعمار ينظرون تارة إلى الشمس الغاربة وتارة أخرى إلى امتداد الطريق . وكلما رأوا شبح سيارة عمهم الهرج والمرج وتصايحوا وهم يصفقون كأنهم يرددون لنا « العروسة أهه .. العروسة أهه » .

وفعلت كلمة « العروسة » فعلها فى كل سن حين تناهت إلى أسماع عشرات الناس .. خلف النوافذ والأبواب وعلى الطريق وفى دكان الحاج عبيد القريب من المكان .. فتنهدت فتاة فى السابعة عشرة من العمر كانت راجعة من الحقل . وتغنى على بعد منها بموال شاب فى العشرين . وعضت عجوز شفتها بلثتها . وتحسست صدرها بنية فى الثانية عشرة لكن ..

لكن مصطفى الذى سحرته كلمة « العروسة » أخذ يتلفت حوله فى كل اتجاه وقلبه يخفق . كان يشعر بحنين جارف لم يدع النوم ليلة أمس يزوره مبكرا . شأن كل غلام يجرى ويلعب ثم يرمى نائما كأنه ميت .

وكان أبوه بائنا فى البندر ليشعري حاجات منها المهم ومنها ماهو
ترف . إذ هم فى شهر أكتوبر والقطن جيد المحصول وحتى هذه العروسة
التي تنتظرها الدار التي طليت واجهتها بالجير كان محصول القطن فيها
سخيا .

وانطلقت الزغاريد ..

وكان « العريس » جالسا فى مكان آخر عند أحد أقربائه المحبين
تفوح من ملابسه رائحة عطر تشبه العنبر يشير بكفه الغليظة وهو يرد
التحية بفخر من منح وساما ..

ومصطفى على الطريق بمعزل عن الصبيان . جلس على إحدى
المصاطب وعيناه تحمقان فى نشوة . وكلما سمع المجموعة وهى تردد
فى نغم رتيب « العروسة أهه » خفق قلبه الصغير وقلمل فى مكانه
بقلق ربما زاد عن قلق العريس الحقيقي .

وطافت بخيال الصبى أشياء براقية ورائحة عطرة وألوان على
الحدود . ثم .. معنى غامض شعر به مصطفى غريزيا .. معنى أن يملك
المرء شيئا جميلا يقول له الناس وقتها « مبروك » !!

ومع غروب الشمس ووسوسة أوراق الشجر بنسيم الخريف تصايح
الصبيان واثقين بما رأته أعينهم : « العروسة أهه » وانطلقت زغاريد
فى حماسة الهتاف الصادق وأزت فى الهواء طلقات ناربة هربت منها
الطيور فى الغبشة وملأت الأنوف رائحة التراب والبارود والعطر
والدخان والطبخ ونزلت العروسة فدخلت من باب الدار .

وأخذ كل شيء يفتر لكن مصطفى مالبث أن أخذ يجرى على الطريق نحو سيارة عامة توقفت لينزل منها ناس وكان أبوه أحد النازلين . ولما رآه الغلام أخذ يهتف من جديد بحماسة موكب كامل : « العروسة أهه .. العروسة أهه » .

وضحك أبوه وضحك الناس ، وقدم إليه أبوه هديته الغالية التي وعده بها قبل السفر .. عروسة من الحلوى .. حملها من المدينة . برق كل شيء فيها حين عبر مصطفى الطريق من أمام الدكان فغمره النور المنتشر من بابه . وكان سائرا على حذر . خائفا من أن يعثر . وخيل إليه أن الطريق كله منعرجات ومنخفضات .. حتى دخل بها .. دخل بها الدار سلام . وتقدمت خطى الليل

وكان مصطفى قد غفا قليلا ثم استيقظ على صوت يملأ أذنيه « العروسة أهه » ففتح عينيه واسترد وعيه .

ألغى نفسه راقدا في إحدى الحجرات العليا من الدار ولم يكن على الطريق كما صورت له الأحلام . ووقع نظره على خشب السقف ثم المصباح المعلق في الحائط . ثم الشباك المقفل .. المواجه للمصباح .. كانت العروسة فيه .. فتبسم لها وهو راقد . وأخذ يمسح في تلذذ بقايا النوم من عينيه . وتذكر موكب الصبيان وهتافهم والعريس الحقيقي وعروسه التي أطلقت لها البنادق والزغاريد . وتنهّد الغلام في لذة ثم نظر حوله ليرى النائمين . أمه وأخته التي تكبره ، ثم قام من مكانه

ومشى نحو الشباك .

وهناك وقف فرأى كل شىء يبرق . جسمها الأبيض الناعم الملمس
وفمها وأنفها الصغيرين . وحمرة أحسن من التفاح على خديها .
وقلنسوة من الفضة ١١ وحزام من الذهب .

خيل إليه أن هذا ليس ورقا ولكنه معادن نفيسة وكأن زغاريد
المساء تتناهى إلى سمعه احتفالا بهما .

وتلفت فرأى أمه وأخته فى عز النوم . فتحسس فم العروسة ثم
حملها بين يديه . وتألفت على رأسها وأصابعها أنوار المصباح حين
اقترب بها منه وخيل إلى الصبى أن العروسة تناغيه فقرب فمها من
أذنه . وفى هذه اللحظة غنى كروان يعبر سماء الريف فملاً سمع
مصطفى فابتسم مخادعا نفسه . وسمع إلى نداء من داخله يغريه
بالتأكد من أنها « حلوى » فلعلها بلسانه . وعندئذ امتلأت حواسه
بالسكر والشذى . وعاد نفس الكروان يعبر السماء ويغنى فخيّل إلى
مصطفى أنها زغاريد السماء فتلمظ فى سعادة .

ومشى بها خائفا عليها ووضعها فوق قاعدة الشباك . وكان كل
شىء نائما إلا .. مصطفى والعروس ١١ وشعر عندئذ بالجوع ففكر فى
الطعام .

ورأى على مقربة منه « سبتا » صغيرا فيه بقايا العشاء لكنه
أحس بحاجة إلى شىء حلو . ولم يكن أمامه إلا العروسة . لكنه زجر
نفسه ..

« أى قضمة ستكسرهما.. حرام !! » ومصمص بشفتيه وربت عليها .
 وخيل إليه أنه اقتنع . لكنه مالبت أن قربها من أنفه وأخذ يشمها .
 وعاد الشذى والسكر فعلاً حواسه . أغمض عينيه وفتح فمه وقضم
 قطعة منها من عند القاعدة التى تشبه قاعدة الناقوس ، وذوبها فى فمه
 وهو مغمض العينين وبعد أن ذهبت اللذة فتح عينيه ليرى ماذا صنع
 فرأى فى القاعدة كسراً على هيئة مثلث فأحس بالندم . ولما وضعها فى
 مكانها من النافذة وقفت تماماً ، فغمره سرور . لأن القطعة المأكولة لم
 تشوه العروسة . وتركها وذهب إلى حيث كان يرقد .

وأغمض عينيه فلم يزره النوم . وتذكر العريس فى الدار الأخرى
 على الطريق الزراعى وذكر سعادته بين المدعوين . فقد كان يرد عليهم
 التحية بفخر من منح وساما .

وتخيل مصطفى موقفه من عروسته ثم فتح عينيه فوقعت بسرعة
 على العروسة فى الشباك .

كان نور الصباح متألّقا على الفضة والذهب . فى خصرها وفوق
 رأسها ، وخيل إليه أنها تبتسم له وتناديه فذهب إليها . وأحس بشوق
 إلى رائحة السكر فعاد يشمها .

وعندئذ أغمض عينيه .. وبلا تفكير ولا رسم خطة قضم قضمة أكبر
 من القاعدة . وذوبها فى فمه وهوى نشوة ، ثم فتح عينيه فرأى الكسر
 مستطيلاً ليس له شكل مضبوط ، فوضع العروسة بلهفة على الشباك..
 فلم تقف .. مالت إلى اليمين .. ولو تركها لسقطت وتحطمت ..



وخیل إلیه أنها تبتمسم له وتنادیه

وعندئذ أحس بالندم .. « كنت أتركها للصباح ليراها الأولاد ..
 ياخسارة » وظل حاملا لها بين ذراعيه متحيرا كيف يسندها . وهم أن
 يوقظ أمه من النوم ليستشيرها فى الأمر . لكنه خجل فمشى بها..
 وجلس حيث كان يرقد ووضعها فى حجره وحمل رأسه بين يديه فى حزن
 وتفكير.

لكنه عاد فقال فى نفسه : « عملوها للأكل » وضحك .. غير أن
 الحزن عاوده ففكر فيما عسى أن يفعل . ولم يلبث أن رقد على جنبه ثم
 وضعها فى حضنه .. ظل يربت عليها ويحملك فى وهج النور على
 الفضة والذهب حتى نام .

وفى الصباح الباكر استيقظ .. لم يكن فى الحجرة أحد سواه .
 وفطن إلى شىء هام .. رأى « العروسة » فى حضنه حطاما من
 الحلوى . غلبه النوم فنام وتقلب عليها فكسرها . منظر مثل بقايا جرة
 من الفخار.. والرأس الجميل سليما .. على فمه ابتسامة غامضة خالية
 من الإغراء لأن الليل قد ولى .. ولم يغادر مصطفى مكانه .. أخذ
 يتناول قطعة بعد قطعة ويأكل فى وجوم . ولم يبق إلا رأسها ... فنظر
 إليها مصطفى وقال فى نفسه ولكن بألم : « كانت جميلة .. قبل
 كسرها .. »

وأكلها .. ! وتنهد عميقا وهو يبلع ريقه .

ولما ارتفعت الشمس وخرج مصطفى إلى الطريق مر على دار
العريس فرآه جالسا عند الباب وكل من مر عليه يهنئه .
فتذكر الصبي تفاصيل ما وقع ليلة أمس .. فنظر نحو الدار التي
طلبت واجهتها بالجير حديثا وضحك ضحكة عالية تنبعث من أعماقه .

حلم ليلة

عندما لاح له وهو في نهاية الشارع الهادئ بضاحية المعادى
منظر عم « ضيف » وقد أمسك فى كل يد بنتا - مشى بينهما فى
هدوء وبين كل لحظة وأخرى ينحنى عوده الطويل ليقول لهما ما يضحكان
منه - عندما وقعت عينه على هذا المنظر أحس بقدر من الأسى الغامض
يتسلل إلى قلبه .

إن عم « ضيف » رجل أثير عنده وعند بناته كذلك ، من الممكن
جدا أن يعودا من المدرسة إلى البيت دون ارشاده أو انتظاره فالبيت غير
بعيد والضاحية وادعة . لكن « منى » و « نوال » بنتيه تصران على أن
ينتظرهما عم ضيف عند باب المدرسة . ، لتشب كل منهما إلى عنقه مرة
بقفزة عالية لأنه طويل بعد أن تناوله حقيبة الكتب ..

« منى » فى التاسعة و « نوال » فى السابعة وهما إذا سارا
جنب عم ضيف بدت ضآلتهما ازاء عوده الفارع .

وهكذا رآهما أبوهما فى نهاية الشارع وهو عائد إلى البيت . ثم
حث خطاه حتى صار على مقربة منهما وأتيح له أن يسمع النجوى
الساذجة بين بناته الصغيرات ورجل ريفى طيب . افترس الرمد بصره
فى صباه فلم يترك للشيخوخة بقية ، ولذلك فهو لا يخرج بالليل إلا إذا
كان برفقة أحد .

كانت « منى » تحكى و « نوال » تفهقه .. وهو يضحك . ليذكى
فى نفوسهما المسرات .

وظل أبوهما يراقب الموقف حتى غاب الثلاثة فى الباب .. خلال
شجيرات للزينة تحمل أزهار فصل الربيع . ثم دخل وكأنه لم ير شيئا
لكن لفحة من الأسى خالطت قلبه فى هذا اليوم . لفحة .. كأنها هبت
عليه من تنور قريب . مع أن هذا الأب واثق من أنه صنع كل ما يمكن
عمله .. نحو عم ضيف الذى يقيم معه فى البيت كحارس وهوليكاه
يحرس نفسه ، بيت بطابق واحد ومن أربع حجرات حولها حديقة
بدائية . من الممكن أن يحرسها كلب .

وعم ضيف ثقيل السمع ثقيل الفهم ضعيف البصر ، وهو لفرط
طوله يجر خطاه إذا مشى حتى تسمع صوت احتكاك نعله بالأرض .
أما الأب والد هاتين البنيتين فهو فى سن الأربعين ، يشغل وظيفة
فى وزارة الشئون . نقل إليها أخيرا بعد أن طاف بالريف بضعة سنوات
كأخصائى اجتماعى فى عدة قرى وعدة مراكز . وفى كل مكان نزل فيه
وأقام .. شيعته فيه دموع الحب ، فهو بطبيعته يحب السلام ، وكان
أميز ما فيه سرعة إطفائه للخصومات بين العائلات فى القرى حتى
أطلقوا عليه « حلال المشاكل » .

وها هو ذا قد استقر به المقام فى هذا المسكن الوادع .
ومنذ خمس سنوات سافر إلى قريته فقابله عم ضيف هذا وهو من
أهاليها .. سلم عليه وانحنى بعوده الطويل يكاد يقبل يده . فارتاع

الأب .. إنه لا يحب هذا النوع من الاحترام .. وهو كأخصائى اجتماعى
يحارب الذل باسم التقدير . فهتف بعم ضيف صارخا :
.. - لا لا يا عم ضيف .. احك مشكلتك ولا داعى لما ستعمل ..
. واتخذ جانبا من الطريق تحت شجرة . « سنط » فرشت الأرض
تحتها ببساط أصفر لما أسقطته من أزهار . كانت رائحتها مع رائحة
الأرض المروية تملأ أنف الأب . على حين رفع عم ضيف رأسه فبرقت
دموع فى عينيه المرمودتين .. الخاليتين تماما من الأهداب . وبلغ الرجل
ريقه وقال :

- ماتت .. ماتت .. و.. أصبحت وحيدا ..
وحبييدا .. يا اا أستاذ .

وشرق بدموعه ومسحها بكفه . ورفع الأب جاهدا ذراعه حتى
أدرك كتفه وربت عليه قائلا له دون تفكير سابق :
- ستسافر معى إلى مصر ..

وفى الليلة الأولى التى باتها عم ضيف فى مسكن الأب فى
المعادى لم تذق عيناه النوم .. عينا عم ضيف وعينا الأب ..
كان الرجل العجوز فى حجرة قرب الباب بها سرير من الخشب
وتظلل سقفها سوابق شجرة عنب .
كان يتذكر ماضيه ..

هناك فى قرية صاحب هذا المسكن الحنون القلب . حيث ظل
خاملا طول حياته . فمرة سائقا للأنفاس فى أرض الوسية . ومرة مناديا

على المسافرين فى ساحة الأوتوبيسات .. ومرة تاجر دجاج ، وكان آخر عهده بالتجارة بأنواعها كلها حين تبين له ذات يوم أن كل قروية مرض دجاجها بالكوليرا باعته له .. سحنته تحمل الطيبة والتقوى والغفلة والرضا بالقليل .

لكن زوجته « سكينه » كانت على النقيض . تحول الصفر إلى عدد بطريقة لاتعقد فيها .. تتاجر فى الفاكهة والبيض والطيور دون رأس مال . وسيط ماهر باهر الجمال فهى كقروية كانت تعد نموذجاً حياً للجسم العامل . الجسم غير المترف . وعندما كانت الشمس تلمس بشرتها كان وجهها يتوهج بحمرة ساحرة .. حية .. مثل حمرة أزهار الرمان .

نعم ..

كانت هذه الأفكار تتوارد على رأس عم ضيف على الوسادة حزنا على الماضى وخوفا من المستقبل . انبعثت تنهيدة عميقة من صدر الأب فقد ذكر صبيها .. ذكر غلاما .. كان فى قريته ووقعت له حادثة لعل لها علاقة بحياة عم ضيف . وكان الأسى فى هذه اللحظة تفوح رائحته فى غرفة الأب مع أريج بعض الأزهار التى سقيت عصرا وأخذت تتنفس فى الليل عطرا وأسرارا .

ونام الأب على أفكاره . آخر شيء تدبره . هو تلك الحادثة . ومع آخر ماتدبره كانت ضحكة من « منى » أو « نوال » تسرى فى سكون البيت . لكنه رأى فى منامه شيئا غريبا . قام بعده فرأى

الشمس تتسلل على ذوائب الشجر : ثم جرع كوبا من الماء .

ونظر الأب فى الساعة ..

كان يوم جمعة وهو نائم فى حجرة وحده .. كان الوقت لايزال مبكرا فعاد واستلقى فى الفراش وأغمض جفنيه .. هل لذ له أن يستعيد الرؤيا .. وأن يعود المنام .. لقد كان شيئا غريبا بالنسبة إليه .. فقد رأى فى أحلامه فترة هامة من حياة عم ضيف . كانت بالنسبة له ولزوجته التى لم تنجب كارثة أليمة .

فذات يوم كان هذا الرجل الهادىء الطبع يعيش وراء أنفار تجمع القطن عند أحد « الوسيات » وقبيل ساعة الظهر والشهر سبتمبر والجو ملئء بالرطوبة ضاعت أنفاس الأولاد .. وعلى الخصوص ولد فى حدود السابعة من العمر يزاول عمله رما للمرة الأولى . كان يتأخر فيساعده عم ضيف حتى يلحق بزملائه لكن لايلبث فترة أن تمر حتى يعود فيصير فى آخر الصفوف ..

وثارعم ضيف ورمى الولد بحصاة فى حجم الليمونة أصابت أذنه فمات فى الحال ..

عادت هذه الحادثة إلى الأب فى المنام ثم استمرت تفاصيلها . فعم ضيف يحكم عليه بسنة حبسا لهذا القتل الخطأ . وسكنية زوجته تصبح وحيدة فى دار عند نهاية المباني . بها ساحة خراب تسع مقبرة القرية على حد تعبير بعض الفلاحين . والباقي .. حجرات شتوية

تبعث الخوف فى نفس الوحيد .

ولم تستطع « سكىنة » منذ اليلة الأولى أن تنام وحدها ..
وكانت ذات صلة بأسرة متوسطة الحال . صلة عميقة حتى كأنها . أم
لبنهم جميعا ، ولم يكن بين أفراد هذه الأسرة صغير إلا غلام واحد ..
كان آخر العنقود . ساكن وادع كأنه أرنب . لاحس ولاضجيج ولا
احتجاج . بل .. قد طالما احتجت أمه عليه لأنها لم تسمعه مرة يحتج
على شىء . فى الثالثة عشرة من العمر.. كان جالسا مع سكىنة وأمه .
والأولى تبكى حظها ووحدتها . وخوفها من الليل . وفجأة وبلا
مقدمات سمع الغلام أمه الشرسة تهتف به :

— قم .

قالت سكىنة :

— إلى أين ؟

— لينام معك . إنه ولد صغير ، إن رائحة الصبيان فى الدور قريبة
من رائحة الرجال . لن تشعري بالخوف !!
واستطرد الحلم :

— وخرج الغلام مع سكىنة .. كانت ليلة باردة . لعلها فى نوفمبر
والسماء بلا قمر . وصوت قطار بضاعة يكركب فى السكون على خط
السكة الحديد البعيد .

كان كفه فى كفها . شعر أنه منساق إلى عالم غيبى . وليس هو
دار « سكىنة » التى دخلها بالليل والنهار ألف مرة ليسأل عن ملابسهم

المفسولة عندها أو يطلب إليها عملاً بإذن أمه . ولم تكن هي تتكلم .
كان الحزن يأخذ عليها مسالك الفكر والكلام . حتى وصلا إلى الدار .
وعندما دخلا إلى الساحة الكبيرة أحس أن جسم المرأة يرتعش . أحس
حقيقة بأنها أرض معدة لبناء مقابر تنقصها شواهد الموتى .

وقطقت أوزات في أحد الأركان لم تأبه لها صاحبها ، واتجهت
فوراً إلى القاعة وفتحتها ودخل وراءها الصبي .. فامتلاً أنفه برائحة
دفع الفرن وسمن مقدوح وفطير في سلة ..

واستطرد الحلم :

— فسكنة تبسط حشية قديمة على الأرض . وتدير مفتاح مصباح
الجاز ليخفت نوره . وتخلع الملابس السوداء لتنام بجلباب آخر ممزق في
عدة نواح ، والصبي راقد جنب الحائط ووجهه إليه وهي إلى الناحية
الأخرى .. ظلت تبكى وتتنهد حتى نام الغلام فلم يعد يسمع شيئاً .

واستطرد الحلم :

فإذا بسكنة بعد استقرار الحال على هذا المنوال عدة شهور تأخذ
الغلام في حضنها ويستيقظ على قبلاها التي تكتم أنفاسه . ويستسلم
بلا كلام . وإذا به يمرور الليالي وملازمته الصمت يشعر في مرقده
جنبها بالشئ الغريب الذي كان خياله يسأل عنه عندما كان يرى باب
حجرة في أي دار يقفل على رجل وامرأة .

ومنذ هذه اللحظة كان ينظر إليها في النهار وهي في دارهم نظرة
من « يملك » ولا يستطيع أن يبوخ ، ويشعر عند غيابها بحزن كانت



كان ينظر إليها فى النهار وهي

فى دارهم نظرة من « يملك »

ترجمته ذبولا وشرودا وزيادة فى الانطواء .

ولما خرج زوجها من السجن عاد الغلام إلى دار أبيه . لكن منظر عم ضيف كان يثيرفى نفسه أحاسيس شريرة . حتى ربض له ذات ليلة فى الظلام ورماه بحجر فصرخ الرجل وهول يجرى . ولم يعرف الجانى.

واستيقظ الأب من النوم على صرخة الرجل . وتلفت حوله وتنفس الصعداء . إنه مجرد حلم .. إنه فى المعادى وعم ضيف تحت فى الحجرة السفلية ، وشرب جرعة الماء ، ونظر فى الساعة ، كان اليوم جمعة فأطل من نافذته ونادى على عم ضيف . وصعد الرجل إليه . كانت عيناه الضعيفتان تقولان : نعم ! أى خدمة .

ولم يجد الأب مايقوله فسأله عن أحواله ، ونظر إلى جبين عم ضيف فإذا بأثر الحجر واضح كأنه بقعة .

ولم يكن الجانى عليه فى الظلام والذى رماه بالحجر سوى الأب عندما كان غلاما !!

وعندما قابله عم ضيف فى القرية وشكا له موت زوجته شعر بالذنب مرتين ، من أجل هذا أخذه ليكفل له أيامه الباقية .



وفى اليوم التالى كانت منى ونوال تهبطان السلم الواطىء جريا نحوحجرة عم ضيف بإذن من الأب والفرح يطير بهما . وإحدهما تحمل له ملابس الشتاء ، والأخرى تحمل له علبة الدواء .

الحظات وداع

كان على الشاطئ دموع كثيرة ساعة أفلعت الباخرة من أحد
موانئ إيطاليا صباح يوم من أيام أكتوبر ، فى طريقها إلى
الإسكندرية . وكان أكثر المودعين بكاء شاب قصير القامة عليه سمرة
مصرية ، وتدل ملابسه وإهماله لشعره على أنه من الفنانين . كان يودع
الباخرة بمندبل بلله بدموعه ويادله الوداع من على سطح المركب سيدة
سمراء فى مستقبل العمر لم تكن فى مثل جزعه من الموقف .

وما إن غابت معالم الأرض عن عيون الركاب حتى كان البحر
شديد الهياج ، فخيم على الجالسين فى الصالونات والراقدين فى
الكباين والمضطجعين على الكراسى فوق السطح - صمت شامل فقد كان
دوار البحر متسلطا على معظمهم وخصوصا الذين ركبوا البحر للمرة
الأولى .

لكنه عند هبوط المساء أخذت الأحوال تتحسن . فهدأ الجو وخفت
حدة الموج ، وابتسمت الوجوه الشاحبة المسبلة العيون عند سماع أول
بشير من بشائر السرور متمثلا فى غناء جماعى لبعض الشبان والفتيات
عند ركن من أركان السطح بدأوا به متهاككا كسلان ثم دب فيه الجبور
والنشاط والحب .

وكما يفعل الناس أيام الحرب فى ليالى الهدنة فعل ركاب هذه

السفينة . فبدءوا ينهبون المسرات قبل عودة الكدر . فتجمعوا حلقات
حلقات في كل مكان .. فى المماشى والردهات والبار العلوى
والصالونات يغنون ويمرحون قبل أن يعود البحر إلى الهياج مرة أخرى .
ولم تكن هذه السيدة السمراء قد امتزجت بغد بالجو الذى حولها .
كان فى رأسها صدايح من الدوار الذى أصابها ظهرا بعد قيام السفينة
ببضع ساعات . وفى نفسها حنين مكبوت غامض لاتدرى إلى أى وطن
ينتمى .

فأخذت تقطع المشى بهذوء وبطء وشروء كما يفعل المرضى فى
دور النقاهة . ثم بدا لها أن تتكىء على الحاجز الحديدى فجعلت تتأمل
تلاشى نور المصابيح فوق سطح الماء . والجزء المظلم والجزء المضىء من
البحر الجبار .. وعند الأفق كان الظلام يتكاثف ولاشئ وراء الظلام .
وعند منحنى المشى سمعت خلفها وقع أقدام ثقيلة عرفت
صاحبها من أول وهلة ، لكنها لم تحاول تغيير وقفتها وإن أحست أن
عينيه تعبثان بها من الخلف ، فصدرت منها حركة غير إرادية كأنما
وخزها دبوس وقلملت إحدى قدميها على الأرض .

ولم يلبث هو أن اتكأ على الحاجز بمسافة تبعد عنها ثلاثة أمتار
وعلى الرغم من ذلك حاولت أن تنظر بعيدا عنه إلى الاتجاه الآخر .
كان الظلام كثيفا عند الأفق وكانت تحملى فيه كأنها ترى هناك
نقطة صغيرة من النور . وعند هذه النقطة تخيلت زوجها وهو يودعها
باكى العينين .. والهزيمة ماثلة على قسماط وجهه بوضوح . ولم يكن

تكوين جسمه ولا ملامحه من المظاهر التى تجعل دموعه تثير شفقة من يراه .. بل على العكس كانت أحزانه تثير الضحك : فقد كان ضئيل الجسم كبير الرأس منفوش الشعر بارز الجبين ضيق العينين . تهتز عضلات وجهه إذا وقع في مأزق ، أما هى فقد كانت الملامح ، وزمام موقفها فى يدها باستمرار وتبدو قادرة على تحمل لحظات الوداع . وأخذ الشاب الضخم الجسم المتكىء على الحاجز يتنحنح بين لحظة ولحظة . وساد الصمت فترة استمع فيها إلى الموج ثم بدأ يرسل صغيرا خافتا كأنه يغنى للبحر . ولم يكن من المستطاع أن يصل الصوت إلى سمعها لولا أن الهواء كان يهب من ناحيته ، وفى اللحن نغمة كأنها نجوى أخرجتها من أفكارها مرة أخرى لتعود إليه .. هذا الذى لم يلق عليها تحية المساء كأنه لم يلتقا . ويعاملها بتحفظ وهو الذى مد إليها يده وقت الظهر بقطعة من الليمون وقرص من الدواء زعم لها أنه ضد دوار البحر . وأحس ساعتئذ أن عينيه تمسكان الناس كأنهما نوافذ سحرية . وهوفوق الثلاثين من عمره وعلى وجهه المائل إلى الشحوب طابع المذات والتجربة .

ثم انقطع اللحن فلم يعد يصل إلى سمعها . وعلى الرغم من رغبتها فى الحركة فقد ظلت مشدودة إلى مكانها تحمق فى الظلمة كأن عينيهما مشدودتان إلى نقطة وهمية من النور رأت عندها بخيالها تفاصيل ما حدث فى الأسبوع الأخير قبل الرحيل بينها وبين زوجها الفنان الذى يدرس الرسم فى إيطاليا .

لقد ظن أن إقامتها معه ستعاونه على المعيشة لكنه تبين بعد مدة أنه أخطأ فى الحساب . فقررت الزوجة أن تعود إلى مصر قبل أن يدهمها الشتاء فلا تستطيع صحتها أن تثبت للمقاومة . وابتسم الزوجان وعيونهما مليئة بالدموع ثم أرقى كل منهما على صدر الآخر فى حسرة من تبين له أن فى الدنيا أشياء لا يستطيع الحب وحده أن يقهرها .

وتنحى الواقف على مقربة منها وعاد يصفر فى الوقت الذى كانت فيه هى تسترجع صور أشخاص عرفتهم هناك . فذكرت على الخصوص « جوليانو » الشاب الإيطالى صديق زوجها . ذلك المستطيل الوجه الأسود العينين والشعر الأخضر الذقن والشارب .. وتذكرت غناء الشديد الوله الممدود المعذب النغمات فى الأيام التى كانوا يخرجون فيها إلى الضواحي لقضاء عطلة الأسبوع .

وفى الوقت الذى أخذ انشاب القريب منها يمشى بخطى وثيدة مثل خطى الديدهان كانت هى تتذكر حكايات جوليانو ونوادره ومرحه الذى كان يسكب البهجة فى نفس أشد الناس حزنا .

لكن أفكارها توقفت عندما عادت الخطى الثقيلة فسكتت خلفها وإذا بالشاب يعود فيلقى عليها تحية المساء ويتكىء على الحاجز قريبا منها . وردت التحية . ولم تكذ تنصرف بأفكارها حتى استرجعها إليه عندما قال يسألها :

— لعلك الآن أحسن صحة من قبل ؟

فردت بعدم مبالاة :

— أشكرك .

وأخذت تتفرس في وجهه الواقع في اتجاه النور فرأت عينيه
الساحرتين وسمعته يقول بنبرة خالية من كل تكلف لكنها مليئة بقوة لم
تدرك سرها :

— هل كنت تدرسين الفلسفة في الخارج يا آنسة ؟

فحملت فيه وهي تكتم ضحكتها وسارعت تسأل :

— فلسفة ؟ ولماذا هذه التهمة ؟

— تهمة ؟ أنا أتكلم جادا .. لكن ..

— لكن ماذا ؟

— لكن يخيّل إلى أن ردك على جاد أيضا .

وهكذا انفتح باب الكلام كما أراد . إنه هو الذي أمسك بذراعها
عصر اليوم ساعة كادت تسقط على السلم والباخرة تميل إلى الأمام
والخلف وعند وصولها إلى السطح حملت في وجهه وشكرته ثم
انصرفت . وها هو ذا يعود من جديد ، وها هو ذا قاماها بتهمة
الفلسفة ثم عاد يؤكد لها قوله :

— أنا كنت أتكلم جادا لأنك كنت مستغرقة في التفكير بطريقة

تؤكد هذا الظن .

ثم ابتسم فأجابته في هدوء :

— هل تريد أن تعرف ماذا كنت أفكر فيه ؟



لكن أنكارها توقفت عندما
عادت الخطى الثقيلة فسكنت خلفها

- نعم .

فردت وعلى وجهها معنى سترته الظلال لأن النور كان آتيا من ورائها :

- كنت أفكر فى .. فى .. فى غيرة زوجى التى لا تطاق .. إنه غيور ياسيدى .. ولو رأنا الآن -

وكانت تتوقع أن تهزه المفاجأة أكثر مما رأت لكنها سمعته يضحك فى طمأنينة وأجابها وهو يضغط إحدى كفيه بالأخرى :

- أو .. كل هذه المتاعب مرة واحدة ؟! .. متزوجة .. وزوجك غيور .. ولم تكونى تدرسين الفلسفة ؟! يعنى أن ظنى لم يصدق حتى فى شيء واحد .

ثم سكت ليستطرد :

- أنت راكبة من إيطاليا لأننى لم أرك على السفينة قبل ذلك . هيه .. زوجك غيور ! .. أنا لو كنت مكانه ..

ثم سكت وعاد يسأل :

- هل سيكون بانتظارك على الميناء ؟

- طبعاً .

- هل كنت وحدك فى إيطاليا ؟

- لا كنت عند أخى موظف فى السلك السياسى وقد دعانى أنا

وزوجى لقضاء شهرين عنده .. لكن جدت أمور حتمت رجوع زوجى قبلى .

— آه .. حسن .. لكن لماذا أنت خائفة من الناس ، ألم تسافرى وحدك
قبل هذه المرة؟

فتأوهت وهى تقول :

— ربما .

فقال بتفاؤل شديد :

— إن الجو قد بدأ يبرد . ألا تلاحظين ذلك . ألا تحبين أن ندخل
إلى المقصف لنشرب شيئا ما ؟

وأشار بيده نحو الباب فسارت وتبعها .

وهناك أخذ يتحدث عن الغيرة مرة أخرى لأنه رآها أنسب الأشياء
لإثارة المشاعر :

— هل يسر المرأة أن يكون زوجها غيورا .. أريد أن أسألك أنت ..
هل يسرك أن يكون زوجك غيورا ؟ ؟

فأجابت وهى ترشف القهوة ببساطة من اقتنع بموقفه وانتهى :

— إنها دليل على الحب لايقبل النفى طول العمر .

فضحك حتى كاد قفاه يلمس مسند الكرسي .

وكانت ضحكته لاتخلو من سخرية وقال :

— إننى أعرف أزواجا يفارون على زوجات لا يحبونهن وأعرف

زوجات يغرن على أزواج يكرهنهم .. المسألة ياسيدتى مسألة « حب

امتلاك » .. أنا شخصا لا أستطيع أن أتصور نفسى غيورا على
زوجتى .

— لماذا ؟

— لأنها إذا كانت دليلا على الحب فهي أيضا دليل على فقد الثقة .
الثقة فى النفس وفى الغير كذلك .

وابتسم ابتسامة كبيرة وحملق فى عينيها ، وكانت جالسة فى
الركن تحت مصباح يضى على الموقع سحرا . وبدا عليها فجأة أنها
توافق على كل ما يقول ، وأن آراءه قد أعجبتها . وعلى شفيتها ولدت
ابتسامة لم تتكامل ولم تذهب . فاقترب منها حتى تلامست أقدامهما
وسألها :

— لماذا لا تتكلمين ؟

— هل تريد رأى فى ذلك بصراحة ؟ كنت أتمنى ألا يكون غيورا .
إننى أمنح حبي للرجل الذى يمنحنى ثقته كاملة . ولذلك ..
وسكتت وحملت رأسها بين كفيها . ثم قالت : آه .. إننى أشعر
بصداع . لقد عاد البحر إلى الهياج طاب مساؤك .. وأرجو أن تبقى
مكانك ..

وبات يحلم طول الليل بما عسى أن تتطور إليه العلاقة .. إن أول
جلسة بينهما قد منحت ثمرات طيبة لكنه خشى حتى الآن أن يسألها
عن اسمها ، ومن الغريب أنها فعلت نفس الشيء . قال فى نفسه :
— ربما كان هذا دليلا على انسجام أعمق فأعجب كل منا بالآخر
وشغلتنا الحقائق عن القشور .

ولم ينم إلا لاما .. وكان خيالها يناوشه طول الليل ، وكفاها

البيضاوان الصغيرتان تضغطان طرفى الشال على صدرها تحت المصباح
الخافت النور . واستيقظ مبكرا . وصعد إلى السطح ليرى شروق
الشمس . وكان البحر لا يبشر بيوم جميل بل كان يدعو إلى المخاوف .
ولما ارتفع النهار بدأ المركب يتراقص فلم تتح له فرصة أن يراها .
وقضى بقية النهار متعبا فلم يستطع مغادرة الفراش . لكن الأحوال فى
الليل أخذت تتحسن فصعد يفتش عنها فى كل ركن لكنه .. لم
يجدها .

وبات ليلة أخرى يحلم بها . لكنه فى الصباح التالى وجدها
جالسة على السطح على أحد الكراسى ، ولم تكن وحدها هذه المرة .
كان معها رجل ويتجاذبان أطراف الحديث وكانت السعادة تبدو
على محياها بشكل واضح .. السعادة التى لا يمكن وصفها .

ورآها أيضا تبدو أكثر اطمئنانا منها ليلة كانت جالسة معه . كان
شئ من الخوف والأحلام يظلل وجهها ليلتئذ ، أما الآن ومع هذا الرجل
فقد كانت فى مرح العذارى فى فصل الربيع . ولما مر على مقربة منها
وحيا وردت ردا عاديا لا يحمل اهتماما ولا ذكرى حتى خيل إليه أنه
أخطأ النظر ، لكنه وقف على بعد منهما يرقب ملامحهما وهما
منهماكان فى الحديث .

ورآها تضحك كثيرا وقيل نحوه أحيانا حتى لا يفوتها حرف مما
يقول . ومن الغريب أنه لم يكن شابا وإن كانت هى فى ريعان شبابها .
كان رجلا فى حدود الثالثة والخمسين متصابيا خفيف الظل . ولم تمض

فترة حتى رأهما يسيران جنبا إلى جنب وكأنهما يتفرجان على أركان السطح لأول مرة .

ولم يكف عن الحديث ولم تكف عن الضحك . ولو كان هناك حلبة رقص لجذبتة هى من ذراعه طالبة أن يراقصها .. هكذا خيل للشاب أ فشعر كأن شيئا عزيزا قد ضاع منه ، وأنه قد هزم فى الجولة على غير انتظار .

وأحيانا يلذ لنا أن نمتحن قوة غرمائنا .
ولذلك .. كان كل من الرجلين يقترب من الآخر فى مساء اليوم نفسه .

ولم تكن هى على سطح المركب . وحيثما كانا كل منهما الآخر بلا تردد ، ثم وقفا يتجاذبان أطراف الحديث الذى أفضى بهما أخيرا إلى أن يقص الرجل على الشاب أشياء منها اسم هذه السيدة .
ودهش الشاب . لماذا لم يسألها عن اسمها كما فعل هذا الرجل .
وتذكر قصة التفاحة التى سقطت على أرض الحديقة وقصد إليها رجلان كل من ناحية لكى يأخذها فلما وقع بصر كل منهما على صاحبة أخذته الكبرياء فوقفا يتحدثان وكأن الأمر لا يعنيهما حتى تقدم ثالث فالتقطها وانصرف .

وعندئذ انصرف الرجلان .. كل يسخر من نفسه ومن صاحبه .
وقال الشاب فى نفسه : عندما ألقاها سأفعل أكثر مما فعل . ثم سأل غريمه قائلا :

- إنها سيدة لطيفة ويبدو أنها كانت معجبة بك فهل عرفت عنها

شيئا ؟

فأجاب الآخر باعتزاز :

- أشياء يا صديقي أشياء ؟ .. إنها كانت فى إيطاليا عند أخيها
الموظف فى السلك السياسى ورجع زوجها لأمر ما وتركها . وهى تتردد
على أحد النوادى الكبيرة فى العاصمة وسألهاها هناك . وقد أبدت
مخاوفها من أن تنتهى علاقتنا بمجرد وصولنا إلى اليابسة .
ثم فرك كفيه فى اعتزاز شديد فى الوقت الذى أحس فيه الشاب
بلسعة الغيرة . وقرر فى نفسه ألا يدع غريمه يكسب الجولة الأخيرة مهما
كلفه هذا من عناء .

وكانت الجولة الأخيرة قريبة جدا لأنه لم تبق إلا ليلة واحدة
سيقضيها المسافرون فى البحر .. ليلة واحدة ويتفرق الأصدقاء ويحمل
كل ذكرياته الخاصة به . ولم يكن البحر ثائرا كما لم يكن هادئا . ولم
يكن سطح السفينة شديد الزحام لأن الجو كان مائلا إلى البرودة .
وأخذ الشاب يفتش عن السيدة متشوقا ظامئا ومتوقعا فى لحظة
أن يجدها لكن معه وهى تستمع إلى حديثه . حتى إذا ما وقع عليها
بصره فى أحد الصالونات مشت الرعدة فى جسمه كأنه لم يكلم سيدة
قط . وكان على وجهه وله المحبين فى حركات يديه علامات قلق . أما
هى فقد كانت وحدها تنظر فى سهوم إلى كل شىء حتى إذا فطنت إليه
وهو يجلس إلى جوارها انتفضت انتفاضة خفيفة . ونظرت إليه كأنها

تقرأ أسارير وجهه ، ثم قالت بعدم مبالاة :

— هل سيعود البحر إلى الهياج مرة أخرى ؟

قال مطمئنا وكأنه يعنى غير مايقول :

— لا .. لاتخافى . إنه سيكون الليلة وديعا كنهر النيل تماما (ثم

تنحنح مستدركا) على أنه لم يبق إلا سواد الليل وينتهى الأمر ..

ماذا إذن لو ذهبنا إلى المقصف ؟

فزادت ابتسامتها اتساعا ونظرت إليه بعينين واهنتين . وتهالكت

فى جلستها كأنها تؤكد له أنها لن تقوم . فاستعان الشاب بكل مايملك

من تجربة وجعل وجهه يعبر عن الحزن العميق وعاد يسألها :

— إذا كنت تخافين من هياج البحر فتأكدى أن ذلك لن يحدث

فلماذا لاتريدين أن تذهبى إلى المقصف ؟

قالت بدلال :

— الليل بارد .

— لا تقولى هذا .. فأنت تدفين ليلة شتاء على ظهر سفينة .

هلمى !

فقامت ، وهي تضغط الشال على كتفيها .

وفى الركن السابق تحت المصباح الذى أضفى على الموقع سحرا

عادا يتجاذبان أطراف الحديث . وشعر الشاب فى لحظة ما أنه فى

موقف القائد الذى تحتم عليه المعركة أن يرمى بكل قواته ليحرز النصر

على عدوه .. عدوه الذى جاوز الثالثة والخمسين .

فتحدث عن الأشخاص الذين يلقاها في حياتهم على سبيل المصادفة ثم يفترقون ولا يلتقون .. مرة واحدة . وقد لا يرى كل منهما الآخر ، لكنه يحمل في نفسه ذكرى لا تزول حلاوتها قط . ثم سألتها :
 — ألم يحدث لك أن أحسست بهذا الإحساس مرة واحدة . ألم

تلتقي مرة بإنسان ندمت على أنك لم تريه قبل يوم لقائه ؟
 وفي الوقت الذي كان يلقي عليها هذا السؤال بهمس يأسر الروح كان غريمه يطل عليه من أحد الأبواب وهو واقف في الممشى بحيث يراها ولا يستطيع أن يراها . ومضت لحظة صمت قبل أن تصدر منها بادرة تعتبر جوابا على سؤاله لكنها مالبت أن أومأت برأسها وعلى فمها ابتسامة مرتبكة وقالت :

— نعم .. حدث .. ويحدث ! فأحس كأنها تقول له : ألسنا معا أنت وأنا في نفس الموقف ؟ فقال لها بحماسة :
 — ثم ألم تلاحظي شيئا آخر .. ألم تلاحظي أن أحدا لم يسأل الآخر عن اسمه . لماذا ؟

فأجابت وهي تهز رأسها :
 — ليس ذلك مهما .. إنه .. لم يحل بيننا وبين أن نتحدث في أشياء أكثر جمالا من أسمائنا ..

وهم بأن يقول لها : إنه عرف اسمها بطريقه ما ، أو عرف اسمها من الرجل الثاني لكنه فضل أن يسكت حتى لا يفسد التعابير الحية البادية على ملامحها . فقال :

– يخیل إلى أننى أناجیک فی ضوء القمر . ماذا لو امتد بنا السفر
یوما آخر ؟ ألا تحسین أن القدر أحيانا یبخل بدقیقة ؟!
ولم ترد . وكانت فی کرسیها كامراًة تريد من یحملها إلى
فراشها .. متهاکة فی جلستها وعیناها مثقلتان بالنوم . ولم ترفع إلیه
طرفها .. كانت تنظر إلى حجرها باستمرار والبحر یؤرجح بهما
الکراسی فی هزة ألفتها الأجسام فأصبحت قریبة من الهددة ، لكنها
سألته فی همس عذب حین سمعته يتأوه :
– مالک ؟!

فوضع کفه على جبینہ وكأنه یعصره به ، فسألته :
– هل أحسست بدوار البحر ؟!
– لا . « ثم ابتسم یكمل « الماء المالح لا یصیبنی بالدوار ..
الذى یتعبنی وبعذبنی و یصیبنی بالدوار هو الماء العذب ؟! الماء العذب .
فجمعت شالها حول کتفیها وقامت تنصرف . لكنه أحس كأنها
تقول له : لا تترکنى . فسألها :
– هل من الممكن أن نلتقى مرة أخرى ؟
فحملت فی وجهه تسأل عن الطریقة ولم تخل نظرتها من عجب .
إنه لم یبق إلا سواد اللیل وتلقى السفینة مراسیها .. وظلت واقفة
کالتمثال كأنها تنتظر بقیة حدیث فألقى بكل ما عنده . قال :
– إننى وحدى فی کبین بالدرجة الأولى فهل تشربین عندى فنجالا
من الشای .. اللیلة ؟!

فهمست كأنها تتذكر شيئا :

— الليلة !؟

ونظرت إلى الأرض ثم نظرت إلى الساعة التى كانت تحدد
العاشرة مساء ثم أرخت معصمها وهى تقول :
— لا أدرى .. ربما ..

— سيكون الباب مغلقا بلا مفتاح .. أديرى الأكرة أى وقت ..
طاب مساؤك .

ودقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . وكان الشاب جالسا
يتململ ولم يشعل إلا نور أباجور صغير ، ثم بدا له أن يستلقى فى
فراشه ليحلم ورأسه على الوسادة . وفى هذه اللحظة كانت الممرات
خالية تماما . وصوت البحر يسمع فيها واضحا جليا والناس نائمون .
لكن شبها كان يتسلل محاذرا ألا يراه أحد . وعد أربعة أبواب
وووقف عند الخامس وقرأ الرقم كما هو متفق عليه ، وأدار الأكرة فانفتح
الباب من فوره فدخل ثم أغلق الباب فى سكون ..

وتحرك الشاب فى فراشه ثم انتفض واقفا وسط الكابين . ولم
تأخذه دهشة كبيرة لأنه كان يعرف الوجه الذى أمامه .. لقد كان وجه
الرجل الآخر.. وجه غريمه فيها مزاحمة فى حبها .

وزالت دهشتها بعد قليل فأدرك الرجلان أنها هى التى
جمعتها فى هذا اللقاء . حين ألقت برقم الغرفة للذى كان يتربص لها
حين لقيها بعد أن تركها الأول .

وفى الصباح رأت كلا منهما .. لكن على بعد .
وفى ميناء الإسكندرية رأى الغريمان ناسا بانتظار السيدة فوقف
كل منهما يخمن من عسى أن يكون زوجها بين هؤلاء الرجال .
أما الخطاب الذى كتبته إلى زوجها بعد وصولها بالسلامة فقد
جاء فيه :

- « حبيبى :

هل تذكر القصة التى قصها علينا جوليانو ونحن فى الميناء قبل
ركوبى ؟ قصة السيدة التى سافرت وحدها وتزاحم عليها رجلان سخيفان
حتى ضاقت بهما ؟ .. لقد حدثت لى وأنا فى الطريق ونفذتها بالطريقة
التي جاءت فى حكاية جوليانو .

كنت أظن أنه يمزح لكن فى الدنيا حقائق أشد غرابة من المزح ..
لقد بت أضحك طول الليل حين نجحت وجعلتهما يلتقيان وجها لوجه فى
كابين أحدهما . لكأن جوليانو كان يريد أن يقول بحكايته : « إن
الشرف الحقيقى هوأن نحافظ على الشئء ونحن قادرون على تهديده تمام
القدرة دون أن يرانا أحد » .

استمع يا حبيبى إلى حكاياته من هذا النوع واحذر عيون
الإيطاليات ذات السحر والأسرار .. حتى أراك » .

الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله

- | | |
|--------------------------|----------------------|
| (١٣) حافة الجريمة | (١) لقيطة |
| (١٤) الوشاح الأبيض | (٢) بعد الغروب |
| (١٥) الجنة العذراء | (٣) شجرة اللبلاب |
| (١٦) خيوط النور | (٤) شمس الخريف |
| (١٧) الباحث عن الحقيقة | (٥) غصن الزيتون |
| (١٨) البيت الصامت | (٦) من أجل ولدى |
| (١٩) أسطورة من كتاب الحب | (٧) سكّون العاصفة |
| (٢٠) للزمن بقية | (٨) الماضى لا يعود |
| (٢١) جوليت فوق سطح القمر | (٩) ألوان من السعادة |
| (٢٢) قصة لم تتم | (١٠) أشياء للذكرى |
| (٢٣) الدموع الخرساء | (١١) النافذة الغربية |
| | (١٢) الضفيرة السوداء |

مؤلفات الأستاذ علي أحمد باكثير

- | | | |
|-----------------------|-----------------------|----------------------------|
| (١) اختناون ونفرتيتي | (٢) سلامة القس | (٣) وإسلاماه |
| (٤) قصر الهودج | (٥) الفرعون الموعود | (٦) شيلوك الجديد |
| (٧) عودة الفردوس | (٨) روميو وجولييت | (٩) سر الحاكم بأمر الله |
| (١٠) ليلة النهر | (١١) السلسلة والغفران | (١٢) الثائر الأحمر |
| (١٣) الدكتور حازم | (١٤) أبو دلالة | (١٥) مسمار نجحا |
| (١٦) مسرح السياسة | (١٧) ماساة أوديب | (١٨) سر شهر زاد |
| (١٩) سيرة شجاع | (٢٠) شعب الله المختار | (٢١) إمبراطورية في المنزاد |
| (٢٢) الدنيا فوضى | (٢٣) اوزوريس | (٢٤) دار ابن لقمان |
| (٢٥) قطط وفيران | (٢٦) إله إسرائيل | (٢٧) هاروت وماروت |
| (٢٨) التوراة الضائعة | (٢٩) جلفدان هائم | (٣٠) في ذكرى محمد ﷺ |
| (٣١) من فوق سبع سموات | (٣٢) الشيماء | (٣٣) إبراهيم باشا |

الملحمة الإسلامية الكبرى « عمر » :

- | | | |
|---------------------|-----------------------|---------------------|
| (١) على أسوار دمشق | (٢) معركة الجسر | (٣) كسرى وقبصر |
| (٤) أبطال اليرموك | (٥) تراب من أرض فارس | (٦) رستم |
| (٧) أبطال القادسية | (٨) مقاليد بيت المقدس | (٩) صلاة في الإيوان |
| (١٠) مكيدة من هرقل | (١١) عمر وخالد | (١٢) سر المقوقس |
| (١٣) عام الرمادة | (١٤) حديث الهرمزان | (١٥) شطا وأرمانوسة |
| (١٦) الولاة والرعية | (١٧) فتح الفتوح | (١٨) القوى الأمين |
| (١٩) غروب الشمس | | |

كتب الأستاذ إحسان عبد القدوس :

عام ١٩٤٩	مجموعة قصص	١ — صانع الحب
عام ١٩٤٩	مجموعة قصص	٢ — بائع الحب
عام ١٩٥٢	مجموعة قصص	٣ — النظارة السوداء
عام ١٩٥٤	قصة طويلة	٤ — أنا حرة
عام ١٩٥٤	مجموعة قصص	٥ — أين عمرى
عام ١٩٥٥	مجموعة قصص	٦ — الوسادة الخالية
عام ١٩٥٥	قصة طويلة	٧ — الطريق المسدود
عام ١٩٥٦	قصة طويلة	٨ — لا أنام
عام ١٩٥٧	قصة طويلة	٩ — فى بيتنا رجل
عام ١٩٥٨	قصة طويلة	١٠ — شىء فى صدرى
عام ١٩٥٩	مجموعة قصص	١١ — عقلى وقلبى
عام ١٩٥٩	مجموعة قصص	١٢ — منتهى الحب
عام ١٩٦٠	مجموعة قصص	١٣ — البنات والصفيف
عام ١٩٦٠	قصة طويلة	١٤ — لا تطفئ الشمس
عام ١٩٦١	قصة طويلة	١٥ — زوجة أحمد
عام ١٩٦١	مجموعة قصص	١٦ — شفاته
عام ١٩٦٢	قصة طويلة	١٧ — ثقب فى الثوب الأسود
عام ١٩٦٢	مجموعة قصص	١٨ — بحر الحرمان
عام ١٩٦٣	مجموعة قصص	١٩ — لا ليس جسدك
عام ١٩٦٣	قصة طويلة	٢٠ — لا شىء بهم

عام ١٩٦٤	مجموعة قصص	٢١ — بنت السلطان
عام ١٩٦٦	قصة طويلة	٢٢ — أنف وثلاث عيون
عام ١٩٦٧	قصة طويلة	٢٣ — علبة من الصفيح الصدي
عام ١٩٦٧	مجموعة قصص	٢٤ — سيدة في خدمتك
عام ١٩٦٩	مجموعة قصص	٢٥ — النساء هن أسنان بيضاء
عام ١٩٧٣	مجموعة قصص	٢٦ — لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص
عام ١٩٧٤	مجموعة قصص	٢٧ — دمي ودموعي وابتسامتي
عام ١٩٧٥	مجموعة قصص	٢٨ — الهزيمة كان اسمها فاطمة
عام ١٩٧٥	مجموعة قصص	٢٩ — الرصاصة لا تزال في جيبي
عام ١٩٧٧	مجموعة قصص	٣٠ — العذراء والشعر الأبيض
عام ١٩٧٧	مجموعة قصص	٣١ — نحيوط في مسرح العرائس
عام ١٩٧٧	مجموعة قصص	٣٢ — حتى لا يطير الدخان
عام ١٩٧٧	قصة طويلة	٣٣ — ونسيت ألى امرأة
عام ١٩٧٨	مجموعة قصص	٣٤ — الراقصة والسياسي
عام ١٩٧٩	قصة طويلة	٣٥ — لا تتركوني هنا وحدي
عام ١٩٧٩	كتاب سياسي — الجزء الأول	٣٦ — على مقهى في الشارع السياسي
عام ١٩٧٩	كتاب سياسي	٣٧ — خواطر سياسية
عام ١٩٨٠	كتاب سياسي — الجزء الثاني	٣٨ — على مقهى في الشارع السياسي
عام ١٩٨٠	مجموعة مقالات	٣٩ — أيام شباني
عام ١٩٨٠	مجموعة قصص	٤٠ — آسف لم أعد أستطيع
عام ١٩٨١	مجموعة قصص	٤١ — يا ابتني لا تخبريني معك
عام ١٩٨٢	قصة طويلة	٤٢ — يا عزيزي كلنا لصوص
عام ١٩٨٢	مجموعة قصص	٤٣ — زوجات ضائعات

عام ١٩٨٣	قصة طويلة	٤٤ — لن أعيش في جلباب أبي
عام ١٩٨٣	قصة طويلة	٤٥ — وغابت الشمس ولم يظهر القمر
عام ١٩٨٤	قصة طويلة	٤٦ — ومضت أيام اللؤلؤ
عام ١٩٨٤	قصة طويلة	٤٧ — رائحة الورد وأنوف لا تشم
عام ١٩٨٤	قصة طويلة	٤٨ — اللون الآخر
عام ١٩٨٦	قصة طويلة	٤٩ — في وادي الغلابة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السخار وشركاه

رقم الايداع ٥١٥٧ / ٧٨
الترقيم الدولى X - ٣١٣ - ٣١٦ - ٩٧٧



دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه